كوب لبن دافئ

مع زهور الكادبول

كوب لبن دافئ مع زهور الكادبول

رواية

جورج إميل

الإهداء

إلى هذا الذي أنار دروبي بكل إتجاه و ما معه يومًا ضللت طريقي ، إلى الذي بث في مفاصلي المرتخية المتحجرة نبض الحياة ، إلي هذا الذي أخرج لي من وحوش البرية أكلًا و من مرارة عشائي حلاوة .. إلى صديقي و نوري و نبض حياتي و حبي الوحيد .. إلى أبي العزيز ، أنا أحبك ..

جورج إميل

مقدمة

بعض الألم مبرر.. وبعضه لذيذ يستسيغه فمك، و يقلبه لسناك كالعلكة قبل أن يمضغه.. أنا اتقبل الألم، لا أعارضه، ولا اقاومه، فقط أخصص له مساحته الخاصة ليغوص بداخلي.. ليتراقص بين ضلوعي ويتخذ من قلبي الجزء الذي يفضله.. لا ألومه، ولا ألوم الأسباب والظروف التي قادته إليَّ ..

معظم الألم نقوده قيادة لقلوبنا وكل الألم مفيد.. بعض الألم سيء جدًا، يجعلني اغمض عيني للحظات كي استوعب مدة إقامته الطويلة في صدري، اغمض عيني وألعن نفسي بلا سبب وافتحهما لأرحب به بإتسامة.. (أهلًا بك) لأن لكل منا مقداره من الألم، مقداره من الطاقة المؤلمة، مقدار من المعاناة.. كما بالضبط إنه لنا مقدار من الهدوء والطمأنينة وسكينة البال..

هنا بعض الألم.. و معظمه وكله

1

لن أسمح لهم بسرقة الدم الأخضر من عروقي، وسرقة قدرتي اللامتناهية على الفرح والحب والحياة والطيران.

(غادة السمَّان)

ككل صباح، صعدت بوادر الشمس وربتت نصف وجهي الأيسر لتنبهني عن دق الساعة السادسة من صباح يومٍ شتوي لم يسمح دفئ المكان بكآبته، اعتدلت فوق سريري، انتصبت يداي لأعتدل ثم وجهت عيني النصف منفرجة بابتسامة جانبية نحو الضوء المقبل من نافذة جاورت مضجعي؛ لأُشبع حاجتهما من النظر للدفء الجديد القادم بعد ليلة باردة.

على الرغم من قلة موارد المكان، وابتعاده عن المدينة بأثاثه العتيق المرتب، إلا أنني أفضله على حياة المدينة في منزلي الواسع.. رائحة الأخضر و هوائه المنعش تملئني هنا، و تجعل صباحي ذو قيمة أكبر.. بعض القهوة الأن قد تجعلني أطير مع ألحان فيا يونان بعد دقائق..

افتقدت زوجتي، ولابد أنها اشتاقت لي هي الأخرى، على الرغم من لوعة الشوق وسوء الوحشة التي تصاحبها قلة الحيلة معه؛ إلا أنه يظل شعورًا رقيقًا ولطيفًا على قلبونا، يزيد من قيمة اللقاء وحرارة القُبَل، ويُزيد التعلق بطول الانتظار و ومرارة الهيام.

لن يطول مكوثي هنا أكثر من شهر على كل حال، و سأشتاق لهذا الصباح قريبًا أيضًا.. يومًا ما سأنتقل إلى هنا، سأحب أن أشيخ وسط الأعشاب ورائحة الزهور.

ابلغ عزيزًا في ثنايا القلب منزله

أني و إن كنت لا ألقاء ألقاه

و أن طرفي موصول برؤيته

و إن تباعد عن سكناي سكناه

تلامس أقدامي العارية سطح الأرض البارد الموقعة مع لحن فيا يونان العزب، واتجه لحمامي بنهاية الردهة لأستقر أمام المرآة و اتمعن النظر في ملامح وجهي..

آه يا فريد! قد تغيَّرت كثيرًا مع الوقت، أصبحت قسمات وجهك أكثر حدة.. تعمَّقت الخطوط العرضية بجبينك و زادت سُمكًا.. نَمَت لحيتك وشاربك فوق العادة بقليل، حتى أن جسمك صار أعرض ونمَت عضلاته وشقَّت العروق منه كجداول خضراء من قسوة الحياة هنا.. شعرك البني صار كثيفًا كثير التجاعيد من قلة اهتمامك به، وعيناك الزرقاوان فقدا بريقهما وسط حاجبيك الغليظين وانتفاخ جفونك من قلة النوم، العمل مُجهد هنا ويستطيع أن يفعل بي ما هو أكثر.

لكني أُحب عملي على أي حال، أُحب أن اجتهد فيه.. قد فطنت في حداثتي على أن الإبداع لا يولد إلا من رحم المعاناة، ولطالما عانيت من صغري بالقدر الكافي لنشأة شابٍ مثلي.. ليست كمعاناة طفلٍ يتيمٍ أو مهجرٍ أو

مريضٍ أو مبتورٍ، ولكنها كانت كافية أن تترك عطبًا صغيرًا بداخلي.. وبذكر العطب اتذكر يومًا من تلك الأيام القديمة ..

* * *

اليوم السبت، الخامس عشر من شهر أبريل، مرَ على عيد ميلادي أربعةُ أيام لم أذق فيهما طعم عام جديد، لم أذق فيهما شيئًا.. العيد غدًا بحكم أننا في ليلة العيد الأن.

هذا العام قاسٍ، الصف الثالث الثانوي بكل ما يحمل.. بقى على موعد اختباراتي أقل من شهرين، التوتر الآن ليس متمكنًا مني فحسب، بل ينهشني.. ولن تفارقني أنيابه إلى الأبد حسبما أظن.

أحاول جاهدًا للمرة الرابعة هذا الأسبوع أن أنهي ما عجزت عنه في مادة الكيمياء.

و لكن.. !

أفشل مجددًا..

خيبات أمل صغيرة تصيبني لتضع الكثير من الأحمال على عاتقي، فيصيبني معها الإكتئاب على الأرجح أشد إصابة..

لم تكن الكيمياء بالطبع.. كان داخلي يحترق فحسب، و اشعر لمرَتي الأولى الآن حبلًا سميكًا ينعقد حول وسط رقبتي في هدوءٍ أربكني وأربك روحي.. أشعر بثقلٍ في أطرافي وأشعر معه برجفة خبيثة تنبه بتجمد عن الحركة قد يبدأ بعد دقائق ..

الساعة التاسعة تدق، يلوح ضوء القمر من غرفتي وأنا أفتح بابها مُعلنًا توقف الدراسة اليوم، أو توقف كل شيء تقريبًا.. توقف حتى فرحة العيد التي لم تزرني بعد.

صالة البيت مزدحمة بأدوات التنظيف والمياه والتوتر المعتاد قبل ليالي العيد، و قد أنْهَك ترتيب المنزل أمي التي تعمل منذ الصباح ..

أقلِّب عيني فيهم في إعياء وضعف أملًا في الحصول على بعض الشفقة.. فلا أجد سوى نظرات الإزدراء تحاصرني لومًا خصوصًا من أبي..

اتجاهل الأمر وأعود إلى شرفتي عندما أشعر بتجمد أطرافي يقترب أكثر.. تجمدي في الهواء أفضل لي من تجمدي فوق طاولتي بين الجدران، وأفضل من انهياري تحت أنظار أبي..

أنظر للسماء، جمودي يكتمل بالتدريج وأشعر ببرودة الدم في يداي.. ثقَل روحي يتعدى حاجز الصدر وصرت أشعر به حتى أقدامي، تجحظ عيناي، وتحتهم السواد من فرط السهر بوجه شاحب محتقن تهرب منه الدماء الآن.. أحاول الإستمرار في الوقوف وقد بدأت الرؤية في الإهتزاز أمامي.. خطوط سوداء رفيعة تشوش السماء.. تختفي.. النور يخفت.. ينطفئ

ثَقُلَ قلبي عليَّ، ثقل حتى هان لي اقتلاعه وسحقه بيدي ولكن لم أقوى على هذا.. تمر ساعة كاملة دون أن يرتجف جفني حتى، الحبل يشتد أكثر حول رقبتي .. يجذبني .. يَسْتَهِلُ بتعذيبي .

اسمع أبي صائحًا بي كي أعود للمساعدة.. أمري يبدو غريبًا جدًا له، لا يعلم أني بالكاد سمعته، وبالكاد أميز صوته، لا أجيب فيستشيط غضبًا في المرة التالية مناديًا إياي بصوت دبَّ الرعشة فيَّ مجددًا.. لا أقوى على الإلتفات، وبصعوبة أبتلع الريق في حلقي، بضع دقائق كانت كافية لسماع صدمة تهز باب الغرفة وتهز معه النخاع في عظمي.. يدٌ تجذبني من الخلف وتعود بوجهي من الخارج، يتبدل وجه القمر من شرفتي بوجه آخر غاضب داخل الغرفة.. أصابع تمتد نحوي في توتر كاد تقتلع فكي من مكانه.. عيونٌ جاحظة، يتراقص فيها الجنون كشيطان مُشتعل.. كلمات غاضبة وثائرة لا استطيع تمييز حرفٍ منها، أنفعل مقاومًا رهبة الموقف فيتجاوز الأمر حدود الحوار ويتحول إلى شجارٍ من طرفٍ واحد أندم عليه الآن.

صفعة.. تتحول برودة وجهي إلى اهتزاز ساخن، وغزة أسفل عنقي، وأخرى أسفل ظهري، لا أدرك ما يحدث و لكنه يؤلم.. يؤلم بشدة .. يؤلم ما تبقى من قلبي ..

لحظات وكنت حطامًا وحيدًا في غرفتي على الأرض بحرارة تنسل لجسدي من وجهي ومن فكي وأسفل ظهري .

تتحرك أطرافي مجددًا.. الحبل حول رقبتي يرتفع ويزيد وجهي احتقانًا.. تهرب الدماء مني.. عظامي تنسحق، داخلي ساخن يحترق في هدوء أثار فيَّ الهلع..

يصيح مانعًا إياي من الخروج للإحتفال بالعيد الغائب ويحاول أن يجد هاتفي ليحرمني من القراءة فلا يجده.. أجمع ما تيسر مني وأخرج بهاتفي عُنوة من المنزل مخالفًا له ليأمرني بألا أعود مجددًا..

عندما أعود أعلم أنه ينتظرني بالأعلى ليمنعني من الدخول فأجلس عند عمي بالطابق السفلي مثقلًا، بدون أي شيء سوى الحبل حولي..

يدخل الفجر عليَّ فيتعطل هاتفي فجرًا، ذهب وذهب معه منفذي الوحيد للتنفس، اتشنج، يذهب وجهي بلونه، تتلف أعصابي تمامًا.. اتعرق.. يدي ترتجف من حرارة الغضب بجنون لأول مرة في حياتي، يتخدر كتفي الأيسر ويؤلمني قلبي جدًا، أحاول أن أستغيث فينعقد لساني ويتلعثم في همهمات من يحتضر، أشعر بالحبل حول رقبتي يرفعني إلي سقف سماء لا أعرف رقمها .. !

ثم ؟!... هدوء مفاجئ.. تنعدم الرؤية.. يسكن الصمت كرصاصة بين فصي مخي، تطرحني طفلًا قتيلًا بلا حراك في لحظة.. يسيل لعابه بجانبه.. كأن آخر قطرات روحه تُسفك على الأرض .

في الصباح أدركت أنه لم يكن حلمًا .

استيقظت، وجدتها بجانبي، نور الجميلة شقيقتي المدللة بوجهها الأبيض المثالي وشعرها الذي زاده مثالية، رأيت في عينيها الصغيرتين الباكيتين أنها قد حملَتَ في قلبها همي طوال ليلة العيد على الأغلب.

* * *

منذ ذلك اليوم عند غضبي أرتجف، وفي ثورتي يتخدر ذراعي الأيسر و يؤلمني قلبي، و قد صارت هذه آفتي المعتادة .

لكن على كلٍ فأبي - حفظه الله- شخصٌ لطيف جدًا، أنا أحبه، بَنى جزءًا كبيرًا مني، شخص مرتب إلى حد بعيد وذكي، دؤوب على عمله و مثقف للغاية.. أودعني إلى الدنيا طبيبًا، أذكر بكاؤه و قبلاته تغطيني عندما علم بدرجاتي المرتفعة آخر العام، اذكر حضنه الواسع الذي لطالما اختبأت بين ثناياه.. و ها أنا ذا، سعيد وراضٍ على كل حال، انهيت معظم صراعتي منذ وقت بعيد.. أجلس وحيدًا في غرفتي كل صباح و تفيض روحي ..

فللروح أوقات تفيض بها حقًا ، تفيض بشكل مريح كمقطوعة هادئة لـ (Yanni)، أو كعُرَب أم كلثوم الرقيقة و المهيبة معًا .. تنساب روحك كجدول مياه في ليلٍ هادئ ، و تنبعث كضوء ناعم ينبثق من نجمٍ صغير طلَّ لتوه من شرفتك .

تَرِق روحك كبسمةِ طفلةٍ زارت الشوكولا فمها للمرة الأولى ، مُنعِشةً كرائحة ملح البحر في نهاية شارعٍ طويل بالاسكندرية ، كزهرة فواحة لثمت لك أنفك في الصباح الباكر ، روح رشيقة ؛ كحركات أمي الخفيفة كل صباح بابتسامتها الطفولية استهلالًا برؤيتي .

كانسياب سلاسل الدخان الصاعدة من أعواد البخور ، هكذا تفيض روحي الآن .

2

لا تخجل ، عِش الشعور الذي يولد فيك بعفوية ، لا يهم ما يكون ، لا يهم ما سيقال عنك ، المهم أن تكون حقيقيًا ، الحياة ليست للدُمى .

(ديستوفيسكي)

أخي و صديقي العزيز فريد ، لم نتهاتف أو نتراسل منذ سبعة أشهر الأن ، ارجو أن تكون بخير حينما يصل إليك هذا الخطاب .. اعتقدت أنه سيكون ذو قيمة أكبر أن أُرسل إليك رسالتي الأولى بعد هذه المدة بخط يدي ، فيكون جزء مني بها ،لعل روحك تلحظه .. مر الكثير من الوقت و اشتقت إليك ، اشتاق لأحلامك و خططك التي كنت تروي لي منها كل صباح فتملأ داخلي من طموحك و رغبتك ..

أعرف أن مشكلتنا الأخيرة فرقت بيننا قليلًا ، لم نعرف عن بعضنا طوال الشهرين الماضيين و هذا يؤلمني .. اتذكر يومًا من طفولتنا عندما عاقبني والداي و أخذوا مني دميتي التي أحبها ، حينها ذهبت مع صديقك و اشتريت لي أخرى حتى احتضنها في نومي ، كنت رجلًا يافعًا حتى و أنت ما زلت في العاشرة من عمرك .. عد سريعًا .. أتوق لرؤياك ..

نور

طويت الرسالة و وضعتها في ظرف مقترن ببعض طوابع البريد ، و في داخله اسطوانة للموسيقى المفضلة لدى كلانا ، فكرت كثيرًا كيف ستكون تعابير وجهه و هو يقرأها ..

ربما سيقرأها و هو يستمع لموسيقانا ؟ أنا متأكدة من أن مشاعره ستثار كمشاعري إن جرت الأمور على هذا النحو .

ترى هل اشتاق لي ؟ هل ستبهجه الرسالة ؟ .. هو أخي على كل حال .

سألت مريم زوجته اليوم متى سيعود من أجازته تلك و أخبرتني أنه يفكر في العودة نهاية الشهر القادم .. سأحاول ألا اهاتفه أو اكتب له في هذه الفترة أي شيء ، فأنا أكره أن افكر في أنه لا يشتاق لي ، أكره أن أفكر في الأمر برمته في الواقع .

في الحقيقة كم أحبه ! أول مرة ننقطع عن بعضنا هكذا ، لم ينشغل عني قط طوال دراسته و حتى بعد زواجه ، لطالما جاورني و ساندني منذ حداثتي حتى أنني اعتدت الأمر كما اعتادت السمكة العيش في الماء ، أجل هذا التعبير دقيق كفاية ، كم هو مقيت هذا الحال للسمكة الأن .

أحاول أن أشتت تركيزي الأن فذهبت للمطبخ لأحضر لنفسي كوبًا من القهوة الدافئة و ما زالت الرسالة في يدي اتأملها ، أراها في يده و هو يفتحها .. ازعجني هذا فطويتها و دخلت غرفتي لأضعها في حقيبتي هاربة من الأرق

.. عند خروجي مساءًا لمقابلة باسم سأضعها في البريد .. اتمنى أن تسير الأمور على خير ما يرام .

امسكت بهاتفي و قُمت بتشغيل الست فيروز لتضفي بعضًا من البهجة و الطاقة الجيدة وسط هذا الارتباك و قلة التركيز ، فانسابت الألحان الرقيقة الكئيبة فورًا ..

سألوني الناس عنك يا حبيبي
كتبوا المكاتيب و أخدها الهوى
بيعز عليا غني يا حبيبي
لأول مرة ما بنكون سوا .

و سرعان ما تدفقت لقلبي ألحانها و عبر لُطف صوتها من خلالي ، لكن ظل فريد في عقلي حتى المساء ، و الأرق الذي يسببه لي كان ينتظرني على وسادتي ليلًا ..

لم يخفى أي شيء عن باسم الذي لاحظني فاترة باردة طوال اليوم ، حتى أن بهجة نهاية الأسبوع التي نرجوها بلقائنا قد أضعتها ببؤسي هذه الليلة ، و لا أتمنى أن يظل شقائي يرافقني طويلًا .

لا اعلم لماذا تسوء الأمور فجأة لهذا الحد ! تراودني أفكار غريبة تجعلني اتحدث إلى نفسي ، تجعلني أشعر أنني الوحيدة من نوعي ، و لكن في الواقع حالي هو حال معظم البشر ..

نحن (العاديون) ذوو الامكانيات البسيطة ، تفصلنا أقل من شعرة دومًا عن الانجاز الذي نسعى له ؛ و ما أطول هذه الشعرة .. نحن المتقدين بالذكاء ، الخاليين من الشغف ، لذا انجازاتنا ضئيلة الا عندما نُركز على شيء يثير الشغف فنحقق فيه كل الانجاز ..

نحن الكثيري الاتزان سريعي الغضب .. الأكثر هدوءًا ، و أول المتوترين .. نحن الذين نحب القهوة ، برغم ما تسببه لنا من اضطراب في ضغط الدم .. نحن الذين امتلأت صدورهم من الآخرين لرحبها ، و لم تتسع ضلوعهم لحصتهم من القسوة ..

نحن من تتجلى فيهم الحكمة ، و نحن من نقوم بالتصرفات الأكثر الحماقة ، لنكون أول المرتبكين .. نحن الطليقي اللسان في المنفعة ، المتلعثمي الألفاظ في المجاملة و الترحيب .. نحن أقل من يبكي ، و آخر من يحزن ، لكن أول من يضعضع الحزن جميع أركانهم ، و أكثر المتأثرين ، و أول ضحايا الحرب ..

نحن من تعلم من وجهونا أننا -نحن - أبناء موت ..

نحن من نسعد بالأشياء البسيطة .. نبتسم لطعام ساخن ، و نبتهج بضحكة صافية ، نضحك من قلوبنا إذا ضحكنا و نسعد من روحنا إن ابتهجنا .. نحن من تجمع الموسيقى شتاتنا ، و كوب القهوة تركيزنا ..

نحن من لا يستمتع بالأفلام القديمة إلا بسلامها و بساطتها ، و نحن من لا يبغض في عصرنا الحديث سوى تطوره الزائد و اتصاله المفرط ..نحن المتقلبي المزاج اللذين يكونون كئيبين جدًا إن اكتئبوا و سلبيين للغاية إن ساء مزاجهم ..

نحن من نعاني من متلازمة Autophobia أحيانًا .. و هي الخوف من الذات ، الخوف من البقاء بلا اشخاص او البقاء بالعزلة ، والظن انه يتم تجاهلنا وعدم الاعتراف بنا ..

نحن من نستمتع بالشتاء و نجد اللذة في لسعة البرد ، نحن اللذين نتخذ الصداقة على محمل الجد جدًا ، ولا نندم على شيء أكثر من عدم محافظتنا على بعض الصداقات .. من جهتي أنا شخصيًا ، لقد حظيت بأفضل الصداقات على الإطلاق

.. لقد كان اصدقائي أفضل من أي اصدقاء ، و أحبني من هم أكثر نقاء و ذكاء و صفاء قلب .. لكنني لم استطع أن أحفظ وصالنا ، أو أن أُعزز رِباطنا .. لأننا نحن قليلي الحيلة ، قصيري الأيادي ، مُرتخي المفاصل ، نعجز عن أن نحافظ على صداقتانا لمدة طويلة .. لأننا لا نملك الكثير لنقدمه قربانًا للصداقات الثمينة ..

نحن من يجب أن تبتعد عنهم العامة إن تعكر صفوهم .. نحن من نحب بقلوب الأطفال ، و نكره رغمًا عنا كالأطفال أيضًا .. نحن من نترك ببساطة ، بنفوس مستريحة تنقلب كطبقٍ رأسًا على عقب إن آن آنها .. نحن اللذين تملَّكهم التوتر و صفَعَ قلوبهم و دب الرعشة في وصالهم ..

نحن الغير مفهومين تمامًا ، المعقدين في احكامهم و عاداتهم .. الهوائيين بإفراط ، و المجنونة قراراتهم .. نحن اللذين لا يفهمنا سوى من نمونا في احضانهم وسط العائلة و على الرغم من هذا فلا يفهمون إلا نصفنا .. نحن المرتبطين بالمنزل و جلسة العائلة .. نحن من نبغض بعض أقاربنا لأننا لا نستريح في وجودهم كطفل في الثانية ..

نحن الكثيرون جدًا ، المنتشرون بفطرتنا و روحنا النصف ناضجة على الأرض ، كما ينتشر الخبز على صفحة المياه ..

نحن المساكين بالروح ، اللذين نعاني الحياة و يعاني منا أيضًا نصف البشر ..

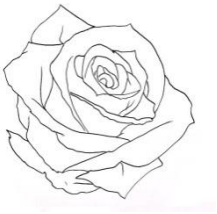

3

و أنا مع ذلك استطيع أن أحبك كل يوم ، و لكني لا استطيع أن اقولها دائمًا لأنها سري الكبير ؛ و الأسرار تفقد قدسيتها إن لم تبقى طي الكتمان

(جمال سليم)

مر الأن ثلاثة أشهر و اسبوعان و ست ليالي منذ أن ارسلت لفريد خطابي ، بعد شهر و نصف سنكمل عامًا كامل بدون رسالة واحدة ، لم يجبني ، لم ألمح خياله في الوسط حتى ، ربما لو كنت ارسلت له الرسالة على هاتفه لكان ضغط على الزر (لايك) على الأقل .. يا لك من بغيض متعجرف يا هذا !

لم تأتي بي كرامتي على أن أتصل و اسأل مريم عليه مرة أخرى ، فهي تعلم أننا متخاصمان و بالتأكيد تعلم أنه قرأ رسالتي و يرفض الرد ، يظن نفسه (توم كروز) على الأغلب .

جلست حزينة جدًا اليوم أيضًا ، مددت يدي لتصل إلى الهاتف بجانبي و ضغطت فبدأت احدى مقطوعات (شوبان) ، كانت عشوائية جيدة فشوبان يلائم اضطراب فكري .. التقطت احدى فرشاتي و جلست أمام اللوحة البيضاء و بدأت في الرسم كمن نجح في الاختباء ، الرسم يخرج ما بداخلي على الورق ، و يلون لي افكاري مع ألحان شوبان اللطيفة .

بعد دقائق قليلة رُغمًا عني بللت وجنتي اليمنى بدمعة هاربة ، و بعد دقائق أخرى بدأت في البكاء لمقاومة رغبتي في رسمه ، و أدركت هذه الرغبة البغيضة لما لاحت زرقة عيناه في عيني الرجل الذي أرسمه على اللوحة ، و هذه الرسمة إن اكتملت ستجعلني استشيط غضبًا ، ستجعلني احترق تمامًا ..

ضغطت بيدي على خدي أُزيل الدموع و أمنع البكاء في عنفٍ .. تحركت من مكاني وارتديت معطفي في تهور و اخذت مفاتيحي و قررت الخروج ، أو الهروب على الأغلب .. فالجلوس في المنزل وحيدةً حتى الصباح سيقتلني بالتأكيد .

الشوارع الباردة تبدو جميلة في هذا الوقت من العام و يؤسفني أن مزاجي العَكِر يُنَغِصُ عليا الأمر .. أحب نوفمبر الذي بدأ في بسط أوراقه أمامي في استهلالٍ رقيق .. للبعض يمثل هذا الفصل الكآبة ، الجلوس في الفراش لأسابيع بأكوامٍ من المناديل الورقية تحيط به .. يمثل الشتاء للبعض الوحدة أما أنا فلا يمثل لي غير (الونس) ..

للمعظم يمثل الشتاء البرد و السقيع ، أما أنا فلا يمثل لي الشتاء سوى الدفء و الشعور بالأمان ؛ لأننا قد لا ندرك بعض المشاعر كالدفء إلا بتذوق (قرصة البرد) أولًا .

.. قرصة البرد تُحَلّي كوب النسكافيه الدافئ في المساء و تجعل لسخونة (كوباية السحلب) قيمةً أكبر .. حبات الفول و السمسم تضفي (الدلع) الناقص الذي يكمل ليلتك بلطفٍ كامل وسط لحافٍ جيد منع عن أصابع أقدامك الهواء المُنسل ؛ فما قيمة كوب ساخن بيدك في الصيف !

الشتاء موسم الدفء ، فبرودة الشتاء تُحَلِّي البضاعة الساخنة .. ما أشد قسوة المساء عليك في الخارج ليلًا ، و ما أشد أمان السرير الجيد و اللحاف الواسع اللذان يعرفان من أين يكون دفئك .

ما أجمل بطاطا خارجة من الفرن إلى فمك مباشرة في ساعة متأخرة من الليل اضطررت فيها لتظل خارج سريرك لانهاء عمل أو دراسة ما ! .. ما أكثر نعومتها في فمك ، ما أطعم ذوابان قوامها فوق لسانك المرتعش ، و ما أشد حاجتك إلى رائحتها الرقيقة التي يحتضنها أنفك المسكين .

ما أحن و أطيب (طبق مكرونة بالبشاميل جه في وقته) ، داعبت نعومة حباته وسط الخليط الساخن فمك و لسانك ، و اختلط بروحك فذهب معه كلا الجوع و البرودة معًا إلى حيث لا تكرتث .

في الشتاء يكثر الدفء جدًا ، تكثر المصادر و الأشياء التي تخطفك من وحدة الليل و برودته إلى أشد الأماكن رقةً .. ما أدفء صوت أمي في سفري عندما تهاتفني مساءًا لتختفي البرودة من حولي .. ما أشد بهجتي بعد مكالمة بصوت أبي خطفتني من الشرود القارص إلى آمان كامل ..

ما أحلى صباح الشتاء بعد ليلة قارصة البرودة ، اشتد البرد فيها حتى ظننت معها أن الليل لن ينتهي إلي الأبد .. لكنه ينتهي بك إلى شمسٍ تخطف القلب و الروح .. ما أقيم فنجان قهوة صغير ينبهك إلى أن كلا من صباحك و انتابهك قد اكتملا مع انتهائه .. ما أطيب رائحته الأنيقة التي تنقلك حالمًا إلى مكانك المفضل .

ما أحلى الفُسح المسائية التي تضفي البهجة و المرح فيهما على أشد الليالي برودة و قسوة .. ما أدفء (النفس السخن الي بتتفخه في ايدك وقتها) ليكون كجمرة نار تحيط بك عند خروجه مع (ضحكة شتوية من القلب) .. ما أمتع البرودة التي تتمكن من الوصول لك عبثًا وسط (حكاوي الفجر) فتجعلك (تتكتك) وسط الأبتسامات المتطايرة و الهمسات البردانه .

ما أحلى رائحة اقتراب الشتاء ، و ما أبهج قدومك يا نوفمبر .. و ما أعسر حظي بتعكر مزاجي عند قدومك ..

مرت بعض الشوارع و استقريت تحت بيوت الحي .. ثم سحبت أنفى كمن يتظاهر بالبرد و أرد على الهاتف الذي بدأ في الاهتزاز منذ لحظة ..

- ألو أنت فين يا باسم ؟

- في البيت يا نور ، مال صوتك ؟

- فاصله و تعبانة .

- طيب أنت فين أنا هجيلك .

- انا تحت بيتكم انزلي .

باسم صديقي الوفي ، تسهُل الحياة بجانب شخص يفطن ما بداخلك ، فتقتسم أحزانك معه لتهون ، و تضرب (×٢) سعادتك معه فتزيد ..

جعل باسم حياتي هنا في الاسكندرية أفضل ، كانت مدينة كبيرة كئيبة حينما انتقلت لها للدراسة ، مدينة كبيرة على فتاة تتوه في الحي و تضيع ،

إلى أن ظهر باسم و ملأ أرجائها معي بالذكريات الطيبة ، فأحببت هذا المطعم و اشتهيت الشاي على هذا المقهى ، حتى أنني عشقت (فيروز) التي لا تفارق مُشَغِل الاسطوانات في سيارته ..

يثير الدهشة أنني عشقت كرة القدم و اصبحت أهلاوية مثله و مثل فريد أيضًا ؛ احفظ أغاني الألتراس عن ظهر قلب و ازوره مرارًا في مبارياته هنا في استاد برج العرب .

دخلنا أحد الكافيهات المعتادة على شاطئ البحر و كانت فيروزي تملأ المكان بالبهجة هنا ، احببت هذه الصدفة .. و اسعدتني قليلًا ..

- حصل ايه ؟

- محصلش اتخنقت شوية بس و انا برسم ، هبقى احسن دلوقتي ، احتجت اخرج .

- روقي طيب .. مفيش خبر عن فريد ؟

- لا يا سيدي مفيش خبر ، و قلقت عليه .

- أنت لو تريحي دماغك و تكلميه ! دا اخوكي يا نور ، يعني حتى اسالي مراته عليه !

- خلاص كل حاجة تتظبط في وقتها بقى .. متقطمنيش

- مش هناقشك ، هات طاولة هنا يا سالم بعد اذنك .

صوت طرقعة قواشيط الطاوله ، أحب هذا الصوت في أذني ، و كما يعلم باسم أني أحب رائحة الشوكولا الساخنة في أنفي الأن لذلك طلب لي

الهوت شوكلت مع الطاوله ، و مع صوت فيروز كان كل شيء وصل حد الكمال ، و نعمت بالهدوء اللازم حتى رن هاتفي ، صخب مزعج ، تشهق في ذعر و يشق عليها الحديث !! إنها أمي .. !!

- أنت فين ، افتكرتك في السكن ؟

- في كافيه مع باسم يا ماما ، بتعيطي ليه ؟

- طيب احنا في القاهرة ، لمي شوية حاجات و تعاليلنا هناك .

- طيب أيه صوت الاسعاف دا ؟ جدو حصله حاجة ؟

- لا، اخوكي عمل حادث و هو جاي من المطار.

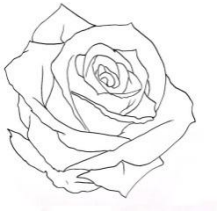

4

الحب لا يمكن تفسيره ولا يمكن إلا معايشته و اختباره .. و مع أن الحب لا يمكن تفسيره ، فهو يفسر كل شيء

(من قواعد العشق الأربعون)

تجمد العالم حولي، شعرت بتوقف كل شيء بشكل مخيف، حقًا ! أخي أنا؟ و أي حادث ؟ هل سيكون حيًا في الساعة المقبلة أم سيكون في السماء بجانب الله ؟ أين أنا ؟ و من أكون ؟ أهذه مزحة ؟ أ كابوس هذا ؟ كم هو سيء هذا الشعور أن تصاب بمكروهٍ و أنت بعيد مني يا أخي !! .. كيف ستمر بي تلك الساعات المقبلة و أنا لا أعلم كيف تكون و ما هو حالك يا فريد !! .. الصراخ لا يناسب الموقف ، أنا وحدي ! لا أحد هنا ! لا اسمع أحدًا و لا اسمعك يا الله !

لا اعرف فيما أفكر و ماذا أشعر ، أرى هناك عامل قهوة من السيارة يضع بعض الطلبات على طاولة ، أرى أضواء المدينة مضاءة و الشوارع مزدحمة بالمارة ، تعابير وجوههم لا توحي بتوقف الحياة ، أأنا فقط أشعر بهذا ؟ .. تتجمد الدماء في يدي ، أشعر بقرصة باردة في عروقي ، لم أستطع أن اقود سيارتي و بالكاد أقنعت باسم ان يعود بها و يتركني بمفردي أعود للمدينة.

تمر هذه الساعات عليا كدهور مطوَّلة ، كمئة عام أو أكثر ، ماذا عن كل هذه المدة في غيابك؟ كأنه عمرٌ مر بدونك يا ابن أبي العزيز الآن .

أنوار المستشفى و أصوات عربات الاسعاف ، الزحام يوَّترني ، على الرغم من أني اتردد على المستشفى بالاسكندرية كثيرًا في دراستي ، و لكن وجوه الناس ، الدماء ، هذا الرجل ذو الساق المتمددة وسط عائلته ، كل شيء مختلف و يقتلني و يتلف أعصابي .

أمي و أبي و مريم ظهروا آخر الردهة مع شاب غريب ، بكاء أمي الصامت اسمعه كضجيج يخلِّف التصدع في قلبي، و الشروخ في روحي .. من نظرة في عين أبي بعد احتضانه ادركت ان نفسه تغوص هو الأخر .. ادركت أن أخي ليس على ما يرام .. أما نحيب مريم و جلوسها على الأرض دب الرعب في أطرافي حتى ظننت أنني سأموت بعد لحظة فقط ، و لا يفصل بيني و بين السماء أكثر من وغزة إبرة ..

أديرُ ظهري فيظهر جزءٌ من وجه أخي وسط الضمادات و الشاش ، كفَّيه الناعمين يخرجان من هذا الرداء الأخضر الذي لا احبه ،أين اختفى ما بقى منه ؟ فقط وسط الاجهزة و الاسلاك !

حقًا يا أخي ! أهنا أراك بعد هذه الغيبة ؟

و بعد صراخ أمي ، و بعدما افاقت مريم بعد إغماء، و بعد ساعة لم تكن سوى ساعة من نار أكلتني حتى نهايتي .. كان المسكين أمامنا في غرفة و تُتكتك الأجهزة من حوله في انتظار أي شيء جديد ..

نظر إلي هذا الشاب كمن يتأهب للحديث ، فبادر أبي : دا رحيم زميل فريد في الشغل يا نور.

- اتشرفت بيكي ، فريد حكالي عنك كتير.

- أهلًا و سهلًا .

في هذه اللحظة استدعانا الطبيب عن طريق ممرضة ظهرت فجأة ، فدخلت مع أبي لحجرة جاورت حجرة أخي .. رحب بنا و قام من مجلسه و

الربة تملأ عينيه الواسعتين خلف عدساته كمن لا يستطيع جمع الكلمات .. بدأ في الكلام أمام لوحة اظهرت قطاعات عرضية مصغرة للمخ ، و بدأ في شرح الاضرار التي خلفتها صدمة السيارة برأس أخي .. كأنني سأتذكر ما درسته عن الجهاز العصبي المركزي الأن !!

لم أتمالك نفسي عندما ارتبك أبي و أوشك على الانهيار و قاطعت الطبيب فورًا : أنا عايزه أعرف حالته هتتحسن ولا لا يا دكتور ؟

فأجاب على مضض : الحالة مستقرة ، بس منقدرش نعرف هيفوق منها تاني ولا لا .

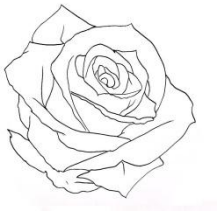

5

و ماذا إن عددت عليك الأماني أو علقتها على ورقة ؟ اتمنى أن احتفظ بكل الأشياء الجميلة التي آمنت بها ، لمستها .. بكل الأشخاص الذين عقدت صداقة متينة معهم و عانيت كي احافظ عليهم .. اتمنى أن يبقى الأصدقاء أقرب من كل شيء ؛ الأصدقاء الذي لا جدوى للعالم بدونهم .. اتمنى أن يظل طعم الذكريات التي احتفي بها عالقًا في فمي و أظل قادرة على استحضار شكل الشعور اللذيذ الذي تعثرت به يومًا .. اتمنى صدفة تلقي بي أمام قلب يشبه قلبًا قد فقدته !و اتمنى أن اعيش عيدًا كأعياد الأطفال خالٍ من الحنين اللا مجدي .

(رفاه السيف)

.

مر الوقت .. كيف كانت هذه ثلاثة أيام؟ حسبتها عامًا كامل ، لم أنم منذ ذلك الحين ، زاد افتقادي و زاد حنيني إليك .

قد أحضر رحيم صديقه صباح اليوم أغراض فريد من الخارج ، استطاع أن يتواصل مع بعض اصدقائهم مما لا يزالوا هناك و ها هي صناديقه تملأ الغرفة ، أجوب في أرجاء حجرته فأشم رائحته تنسل من الدولاب .. البالطو الخاص به هنا بعدما تم كيِّه منذ ذلك العام ، لكنه يبدو كما لو تم تجهيزه له توًا .

أشعر أنه كان هنا في غرفته بالأمس أو قبل أمس.

كنا بعيدين عن منزلنا هنا بالقاهرة منذ فترة - أنا و أخي - لكن غيبته هو كانت أطول من غيبتي بقليل ، و بعودتي فضلَّت أن أقيم الآن بغرفته إلى أن يعود و يخرجني هو منها بنفسه .

أفقت من شرودي .. ارجع خصلة من شعري بللتها بعض الدموع .. اشيح بنظري الي مرآته ، و أراه يقف أمامها لدقيقة فقط قبل خروجه و استعجب !! .. كيف تقاوم ألا تقف أمامها نصف ساعة كما أفعل قبل خروجي ؟

و أتابع الحديث : كنا مجتمعين هنا بالبارحة يا أخي ، أتذكر ربطة شعري البنفسجية تلك ؟

* * *

- و أيه القمر رايحه فين كدا ؟

- نازلة مع ماما أجيب شوية هدوم للكلية .

- لولا أنك قولتي إنك نازلة مع ماما ، لكنت افتكرتك نازلة تقابلي بالشياكة دي كلها .

- بس يلا بدل ما أجيلك !

- تعاليلي و أنا هخلي ماما تستناكي نص ساعه كمان عشان تظبطي البهدله الي هتجرالك .

- ما تبطل بقى ياخي افترى !!

* * *

و رميتك بوسادة في تلك اللحظة و استقبلتها بوجهك ضاحكًا ، و قمت و لكزتني بعنف بادئ الأمر ، و بمقاومتي قمت برجي كزجاجة مياه غازية و رفعتني في الهواء كدمية ، و بنهاية المعركة انتهى مصير ربطة شعري تلك بيدك ، و استغرقت نص ساعة بالفعل كي ارتب فيها ملابسي و شعري مجددًا .

هذه الغرفة تعج بالذكريات ، لطالما تركت غرفتي و جاورتك في السرير خوفًا من أشباح الليل و ظلمة المساء الغامضة ، ولطالما كنت حنونًا تخبئني في حضنك آخذًا الأمر على محمل الجد ، حاميًا إياي من الأشباح و الظلام حقًا .

تنهدت و أخذت نفسًا عميقًا عندما رن هاتفي ، إنه رحيم يتصل ، فأجبت محاولة اخفاء التنهيدة بين أنفاسي المرتعشة ..

- ازيك يا نور ،عامله أيه ؟

- تمام يا رحيم ، أنت كويس ؟

- نشكر ربنا ، في حاجات كانت تخص فريد معايا وحابب ادهالك .

- مفيش مشكلة أنا كنت نازلة المستشفى دلوقتي ، اقابلك في طريقي .

- طيب هبعتلك عنوان كافيه قريب ، اقابلك و نروح سوا .

اغلقت الهاتف بسرعة دون أن اودعه و وضعت يدي على فمي وشهقت بعنف لاكتم آخر الدموع .. ثم أهُم بتغيير ملابسي بقوى خائرة تقريبًا ، و امسك بجاكتي و مفتاحي و اخرج .

ترى ماذا يخص فريد بحوزته و لم يرسله مع الصناديق ؟

في طريقي اشتهيت كوبًا من اللبن الدافئ ، لا اعرف من أين ظهر هذا ، لكني لم أشرب اللبن كعادتي منذ رجوعي من الاسكندرية ، اشتقت للشوكولا الساخنة سريعًا و الألعاب على المقهى التقليدي ، كما اشتقت لباسم و فيروز و أم كلثوم و صور نجيب محفوظ و طه حسين على الجدران ، و يجول أيضًا في خاطري طلة سالم علينا بما طاب لنا على صينية معدنية في صخبه المعتاد و ابتسامته المعتادة في قوله " و عندك أحلى هوت شوكلت للأنسة " .

ما أحلى أن يكون لك ملاذ تستطيع الهروب إليه نهاية كل يوم عصيب ! ما أحلى أن يحتويك مكان يشعرك بالرضا ! يقدم لك ما تشتهي أذنك و أنفك

و فمك و عينك و حواسك الخمسة مجتمعين ، مكان يحتضنك و يقول لك :

" هنا أنت ستشعر معي فقط بالشعور الذي تريد ، لن اجبرك على لمس صفحات كتاب التشريح القديمة ، ولا سماع نبرة هذا الدكتور المتسلط ، و لن تضطر لشم الحبر و المكوث بين الجدران مجبرًا لساعات ..

هنا لديك البحر و فيروز و الشوكولا .. و كهدية مميزة للزبونة الصغيرة ، يوجد لدي رفيق مميز أيضًا يدعى باسم اللطيف ، يمكنكِ أن ترمقيه بعينيك المبتسمتين كلما رغبتي بذلك .. لأن حتى ابتسامتك الناعمة يهمني أمرها .. لن أجعلها تطير وحيدة في الهواء ".

آه أيها السمج باسم كم اشتقت لك بإفيهاتك السخيفة و ضحكتك الصاخبة .. اشتاق لنظرتك التي تدعى فيها الغموض حينما تتوقع حدوث الأشياء و تحدث بالفعل .

ايقظني من شرودي إسراع التاكسي فجأة .. صوت السيارات متسابقة للعبور بعد فتح الاشارة المزدحمة ، هذا الصوت المتكرر المزعج الصادر من (الكلاكس) منها جميعًا يثير فيَّ رغبة الارتجاف .

لم ألحظ أنني قد قاربت على الوصول ، مر الوقت سريعًا في شرودي ، يقول دومًا فريد لي أنني أشرد كالقطط حينما أفكر .. أنسى أين أنا و إلي أين أذهب و ما هي وجهتي .. يقول أنني أحمل عالمًا خاص بداخلي يكفيني أن أشرد فيه لساعات لأنفرد بنفسي .

توقفت السيارة أمام الكافيه المقصود فنزلت من السيارة و نظرت صوبه .. لمحت رحيم خلف أحد مقصوراته الزجاجية فرفع لي يده ينبهني أنه رآني كذلك .

.. استقبلني ناهضًا و على وجهه ابتسامة .

- ازيك

- كويسه الحمد لله ، أسفه اتاخرت عليك الطريق كان واقف .

- ولا يهمك أنا عارف .. الظرف دا في حاجات تخص فريد ، حبيت ادهملك بنفسي لم وصلوني .

- شكرًا يا رحيم .. تعبتك .

- أنا كنت طالب قهوة ، أطلبلك حاجه ؟ اعرف انك بتحبي تشربي لبن .

ابتسمت عندما علمت أن فريد من أخبره بذلك ، و استمتعت بكوب اللبن كعادة لا أكثر ، لأن جَو الكافيه المرفه هذا لا يلائم دفئ اللبن .. أفضل أن أحتسيه المرة القادمة بجانب عمو نجيب و طه حسين في قهوة سالم .

.. لم أكمل كوب الحليب و هممنا للرحيل ، ربكنا سيارته الزرقاء و دار الكاسيت بدوران السيارة ليمتعني قليلًا برحلتي الصغيرة رغم الأرق الذي تسببت فيه الألحان القادمة من لبنان :

و أكتبلك عا ورقة حتى ما أقول ما بقدر أقول

ياريتك مش رايح .. ياريت بتبقى على طول

النوافذ المغلقة ومكيف الهواء أراحوا أعصابي من ضجة الطريق و ناسبوا مزاجي للحظة فقط ربما قبل الوصول ..

لم نكمل عشرين دقيقة و كنا أمام غرفة أخي، قبَّلت والداي واحتضنت مريم.. ودعت رحيم و دخلت الغرفة وحيدة و طلبت أن يذهبا ليناما في البيت مع أمي المرهقة، بعد أن ظللت أهدئ من روع مريم لدقائق حتى اقنعها ببعض الاسترخاء على سريري الصغير في المنزل.. كانت تحتاج الراحة أكثر من عداء يركض من ثلاثة أيام أو شيء هكذا ..

سأبيت الليلة مع أخي بمفردنا .

بعد عشر دقائق فقط كنت على كرسي بجانب أخي و أمامي الظرف الذي تركه رحيم ، ظرف بني طويل كالطرد ، لم يلهني إلا لحظات حتى تعلَّقت عيناي بأخي .

.. آه يا صغيري كم افتقدك .. هلا فتحت عينيك للحظة ؟ ارمقني بعينك و لترى كم تغيرت في غيابك ؟! .. فأنا هنا ، نور يا فريد ، نور العسلية يا دكتور .

متى نمى شعرك البني هكذا ؟ و متى أطلقت لحيتك يا مشاكس ؟ شكلك الجديد يليق بهاتين العينين الزرقاوين على أي حال وهذه الكتلة من العضلات .. هل سيعيق عمل هذه الأجهزة الكبيرة حضن صغير وسط هذه العضلات أيها الوحش ؟ أيمكنني حقًا معانقتك لثوانٍ فقط ؟

.. ليشفيك الله لي ، أو ليأخذ ما تبقى لي من أيام و يودعها في كتاب حياتك يا حبيبي .

عادت عيني لذلك الطرد فأمسكته بحزم على الرغم من أنني أكره ملمس الأوراق ، و فتحته .

ما هذا ؟ اعتقد أنه دفتر مذكرات فريد ، أما زال يحتفظ به طوال هذه الشهور !؟

و شيء آخر هنا .. غير معقول ! أنه خطابي الذي أرسلته لفريد لكن ظل مغلقًا !! أطوال الثلاثة أشهر الماضية ؟ ألم يفتحه حقًا !!

أستشيط غضبًا و لا أأبه بالوقت .. اخرجت هاتفي الخلوي لأتصل برحيم و اسأله عما إذ كان أخي تسلم الخطاب أم لا ، فوجدت رسالة .. إنها من رحيم !

" أنا آسف جدًا، نسيت أقولك إن الجواب دا جه من القاهرة لفريد واستلمته وهو مش موجود، والدنيا ما كنتش مظبوطة معاه عشان نتقابل لفترة، و الجواب فضل معايا ونسيت ادهوله بعدين لم رِجِع "

" تبًا لهذا ! " أصرخ صرخة مكظومة أضغط فيها على أسناني بعنف و أرمي الخطاب ع الأرض .. بدأت في البكاء فورًا..

لا أعلم هل أغضب من عدم تسلمه الخطاب !! أم أرضى بأنه لم يتجاهلني حينما اعتقدت أنه قرأه !! أم أبكي على حالي على أنه تعرض للحادث و هو يظن أنني ما زلت غاضبة منه !؟ أم أندم على أنني لم أتصل به لكبريائي .. يا إله السماء و الأرض سيجن جنوني أنا اقسم بذلك !

دقائق من البكاء كادت تصيبني بجلطة في ارهاقي .. لكن هَدَأَ روعي مع مرور الدقائق و جفت الدموع فوق وجنتاي و أنا اتأمل أخي الناعس أمامي بجلوسي على الأرض في حسرة ، و أكره أن أقول أنه شيء غير الناعس ، قد طالت غفوة أخي فحسب أعلم بذلك ..

دارت عينياي المنهكتان في أرجاء الغرفة التي أنار القمر معظم جوانبها .. ثبتت على السرير الفارغ بآخر الغرفة فكان مغريًا لجسدي المتعب و اشتهيته .. و عادت لتستقر على المسكين الناعس أمامي .. فكيف أنام و اتركك يا عزيزي ! أشفقت على حالي و دمعت عيناي مجددًا ، قرأت له الجواب لعله يسمعني و اقتربت منه و لثمت له خده الناعم دون أن تقوى أقدامي على حملي .. أطلت التقبيل حتى بللت عيناي وجنته اليمنى و أمسكت بمذكراته و اعتدلت بمجلسي بجانبه على الأرض و فتحتها على الصفحة الأولى .

6

لا يزال التحديق في عينيك يشبه متعة إحصاء النجوم في ليلة صحراوية .

ولا يزال اسمك هو الاسم الوحيد الممنوع من الصرف في حياتي .

لا تزال في خاطري : نهرًا نهرًا ، و كهفًا كهفًا ، و جرحًا جرحًا .

اذكر الأن رائحة كفك من خشب الأبنوس و البهارات العربية الغامضة.

تفوح في ليل السفن المبحرة إلى مجهول .

لو لم تكن حنجرتي مغارة جليد لقلت لك شيئًا عذبًا ، شيئًا يشبه كلمة : "أحبك"

(غادة السمان)

لندن - ٢٠١٦

سمعت صوت حراكٍ في الغرفة المجاورة فعلمت أن رحيم قد استيقظ على صوت الألحان في غرفتي :

حل عشقًا في السويداء وقد
صار جزءًا من الفؤادِ بالصميم
يا شقيق الروح لا تبرح دمي
فعروقي تشتهي فيها تقيم

دعكت عيني بشكل دائري و شعرت بشبحِه عَبَرَ ليدخل الحمام ، لم تمر ثوانٍ حتى عاد رفيق سكني إليّ و أتخذ مجلسًا بجانبي .. هذا الشاب الطويل ، أسود الشعر و العينين و قصير اللحية مما يناسب وسامته ، ليس ضخما و لكن جسمه لم يُحرم من العضلات و القسوة ..

- أنت منمتش بقالك يومين و تحت عينك سواد زي المدمنين ، أيه يا حبيبي مالك ؟

- عادي يعني يا رحيم ، مخنوق شوية ياخي .. أنت عارف ضغط الشغل و الغربة .

كنت أبرر له لكنه كان يعرف .. يعرف أن كل شيء تسارع فجأة هنا معي .. من بضعة أشهر تكلفة سفري إلي هنا كانت مقاطعة أختي طوال هذه المدة

، و مع مشاكلي المتزايدة مع مدير المشفى اعتقد أنني سأعود قريبًا إلي القاهرة .. و لكنه أبدى لي أنه يراني أتماشى مع الأمور رويدًا رويدًا واعُجب بذلك .

- بص يا صاحبي أحنا لسا شباب والدنيا قدامنا، مشاكلك في الشغل بتتحل مع الوقت والدنيا هتمشي بسرعه هنا و هنرجع أجازة لمصر قريب، عايز تقعد هناك بعدين مش هيجرى حاجه ! لكن أنت قاعد بقالك يومين مبتنمش، أنا عارف أن الموضوع مش حكاية شغل بس .أنت بتحب جديد ولا ايه؟

سخر مني وضحك قليلا ولم جَزَمَ أن الموضوع له علاقة بنور ابتسم و حسدها على حبي لها ، أنا أحب نور فعلًا كفتاتي الصغيرة و ليس كأختي فحسب ، و هنا لن يُقدِّر الكثير معاناتي تلك .. ثم بدأ يتحدث من جديد و شعرت أنه صوتي الداخلي لم شردت .

- اسمع يا فريد ، اعرف كيف شعور أن لا أحد يعلم ما اصابك ، لا أحد يعلم كيف هي معركتك الخاصة مع الحياة .لا أحد يعلم عما يزعزع أمانك ويقتل عفويتك، وكم كافحت وكم خسرت لتكون هنا .. أن لا يعلم أحد بالفعل من تكون أنت .

لكن دومًا هناك شيء بداخلك إن استطعت التقاطه و التحكم به ، ستتحكم في كل عواطفك و تصرفاتك ؛ من تهور و هرولة و تسرع و غضب و سوء تقدير أو شعور سيء يزعزع داخلك حتى و لو كان اشتياق.

شيء عندما تتحكم فيه ستصبح الشخص الوحيد المسيطر على مزاجك و فكرك بشكل تام .. ثق في كلماتي و صدقني .

انه كالهدوء ، كالفن .. إنه الايمان بأن أسوء المشاكل و الأوقات تنتهي حتمًا ، و أن الأشياء الطيبة الحسنة لن تنتهي أبدًا بإحياء ذكراها .. بأن التعويض يفوق أضعاف الوقت القاسي و البارد .

شيء تستطيع به أن تكون وسط اللطمات و التصادم ، شيء تظل لديك به الرغبة في اقتطاع وقتك لتجلس في شرفتك ، لتقرأ رواية لطيفة و تستمع إلي موسيقى ، لتستمتع بهذا الوقت و العالم يشتعل من حولك .. كُن قاسٍ كما يكون الرجال ، فالأمر ليس كم من الضربات تستطيع أن تسدد للحياة ، بل كم من الضربات تستطيع أن تتحمل و تستمر في المضي قُدمًا .

ثق في ما أقول ، هذا يسمى سلامٌ داخلي .

.. كأنه كان صوتًا هبط من السماء ، راق لي جدًا حتى أنني دونته بالعربيَّة لأحتفظ به كما يتردد في ذهني .. رحيم عدَّل مزاجي حينها باصطحابي إلي مطعم شرقي يشبه تمامًا مطعمي المفضل بالقاهرة ، وجبة السمك المعهودة ، و كوب الشاي التقليدي ، فكان هذا ملاذً لي من الغربة ، بجعلي أشعر بالقليل من الألفة و الود .

* * *

اغلقت مذكراته و وضعتها بجانبه ، كنت قد بدأت في البكاء مجددًا و أنا أقرا بخط يده أنه اشتاق لي .. كم هو عجيب أمري !! ظننت أنه قرأ أني افتقده و تجاهلني دون رد .. و ها أنا ذا أقرا أنه افتقدني و أعجز عن أن أجيب .

اتذكر أنك كنت تحب هذا المطعم بجوارنا ، لم تتشابه عاداتنا و أماكننا المفضلة كثيرًا .. لكني أحب أن أعيش بعضًا مما عشت هنا ، أحب أن أشعر أنك موجود ، و أكره أن أفكر في أنك فاقد للوعي .

مِلت نحوه و لثمت وجنته مرة أخرى و أطلت التقبيل حتى جرت فوقها أحد دموعي .. أمرر يدي في شعره الناعم و أهمس في أذنه بصوت خافت "ربنا يحفظك يا صاحبي " .

اعتقد أنني أفضِّل التحديق فيك على النوم ، أفضِّل أن أضع كفك بين كفيّ هكذا .

سأمر بالمطعم الذي تحب بالغد ..سيأتي لي باسم غدًا و سنقضي بعضًا من وقتك الممتع .. أتمنى أن يسعدك هذا .

7

عجبت منكَ و مني

يا منيةَ المتمني

أدنيتكَ مني حتى

ظننت أنكِ .. أني !

(الحلاج)

صوت العصافير ، أشعة الشمس، قد أقبل الصباح بالتأكيد .. ما يزال فريد يغُّط في نوم عميق ، قبَّلته و قصدت الحمام لأغسل وجهي لاستعد للصلاة .

صليت من أجله ، صليت كثيرًا .. كثيرًا جدًا ، انهمرت دموعي من فرط الدعاء و قلة الحيلة .

قمت بتغيير ملابسي استعدادًا للنزول .. كوب من الحليب سيكون كافيًا للإفطار اليوم .

وقفت أمام المرآة اتأمل حالي .. "يقول لي أبي عندما أنظرُ لكِ أرى فريد ، وعندما أنظر لفريد أراكي" .. فلعلي أراكَ واثبًا إن تأملتُ انعكاسي قليلًا .

حقًا اشبهك في كثير من الأشياء .. ورثنا كلانا الشعر البني الفاتح و العينين الزرقاوين .. عدا أنني نحيفة فلا اشبهك من ضخامتك في شيء .

ربما طريقة كلامنا تتشابه إلا عندما أرفع صوتي .. تقول لي دومًا أني عندما احاول رفع صوتي أو الصراخ ، تخرج الكلمات من فمي كمواء القطط .

بالإضافة إلي أنني أقصر منك قامة و أرق منك في طبعي بالتأكيد ، فأنت عندما تغضب تبدو لي كثور هائج .

على كُلٍ لم أرك فيَّ من خلال المرآة كما ظننت .. صورته و هو مُمد هكذا لا يجيبني .. لا يتحرك .. هي الصورة الوحيدة العالقة في ذهني .

لوَّحت له بيدي كتوديع مؤقت و خرجت .

آخر الطريق قابلت طبيبه و رحب بي .

- أزيك يا أنسة ، أنت نور أخت فريد مش كدا ؟

- أيوه يا دكتور أهلًا و سهلًا .

- كنت حابب أقابل الأستاذ والدك بليل لم يجوا عشان اتكلم معاه شوية .

- حاضر يا دكتور هبلغه .. بعد إذنك .

خرجت .. في بالي أفكر ما الجديد ؟ لكننا سنكتشف بالمساء على أي حال .

عند باب المشفى رأيت باسم قادم فابتسمت ابتسامة عريضة أظهَرَت ما بداخلي من فرح أبله برؤياه أخيرًا .. اقبلَ عليا ضاحكًا و تعانقنا .. كنا في لهفة لكثرة ما تحوي قلوبنا مما نود الإفضاء به خارجًا .

حكيت له عن الطرد البني بمذكرة أخي و عن رحيم و مقابلتنا .. و عن الخطاب الذي لم يُفتح و عن معاناتي وحيدة لليالي .. هممت بالبكاء فورًا .. كطفلة باتت عدة أيام وحيدة في غرفة مُظلمة .

استمع لي بحرص و ابدا حزنه و طيَّب لي خاطري .. بعد نصف ساعة كان قد بدأ في اضحاكي .. لم يفت الكثير من الوقت و كنا نستمتع بكوبين كبيرين من الحليب الدافئ .

ملأ لي باسم بعضًا من طاقتي .. اعطاني الأمل في الغد كما يفعل دائمًا .. بدا متفائلًا فانتقل لي ذات الشعور و شعرت بالرضى معه ، فالطاقة سهلة الانتقال .

اعجبته فكرة أن نتعشى سويًا في مطعم فريد المفضل بالشيخ زايد و قال أن هذا لابد أن يجعله سعيدًا و سيقدره لي عندما يستيقظ .. أردف أنه عهدني فتاة قوية و أنني سأتخطى هذه الأيام حتمًا ، و لسببٍ ما صدقته .

قضينا الوقت و اخذتنا الأحاديث حتى حلت الظهيرة ، و عندما تذكرت موعدنا مع الطبيب في المساء اقترحت أن نجعل زيارتنا للمطعم غداءً لا عشاء ، فاستحسن باسم الفكرة و اخذني إلي هناك .

على الرغم من كون المطعم عاديًا بعض الشيء ، إلا أنني شعرت بمهابة عند دخوله .. تُرى أي طاولة كنت ستختار يا فريد ؟

.. جلسنا و طلب لنا باسم السمك المشوي كما كان مكتوبًا في مذكرات أخي و ظهرت روائحه الفواحة تنادينا من مطبخ الشيف دونًا عن باقي الأطعمة، كأنَّ معدتي تعرف من سيزورها دون الجميع و كأنَّ أنفي على علمٍ بما يجول في خاطري .

دقائق كثيرة وفيرة بالمتعة الساخنة .. لم يكن لها مثيل مع الصلصة البيضاء ، و قد فتح باسم لي شهيتي فملأ كلانا معدته .

و طلبنا وجبة صغيرة إضافية ليعلّبها لنا النادل (تيك آواي) و شربنا الشاي في مقهى مجاور كما يحب أخي أيضًا .. ثم جلبنا كوبًا معلبًا من الشاي اضافيًا أيضًا .

- افتكر أنه هيبقى مبسوط أوي لم نوصل .

بدت السعادة في عيني .. كما بدت في عيني باسم لمشاركتي هذا ، و زاد شعوره هذا فوق سعادتي سعادة أخرى .

بعد خمسة و أربعين دقيقة كنا أمام المشفى و هاتفتني أمي فعلِمتُ أنهم في طريقهم إلينا حسب موعد الطبيب كما أبلغتها في رسالة .

صعدت أنا و باسم حتى غرفة أخي بحقيبة الطعام و لحسن الحظ لم تكن مريم هنا بعد ، لأنها توجد هنا عادة أكثر من الجميع .. لكني أردت أن أكون بمفردي .

استند باسم على إطار الباب و عقد ذراعيه و ظل يراقب في ابتسامة خفيفة .. كان يعلم ما يجول في خاطري حينها ، و كنت أعلم أنا أنه يعلم .

دمعت عيناي و أنا افتح كيس الطعام ببطء مُخرِجَةً منه قطعة سمك صغيرة ، و اقتربت من سريره لأجده نائمًا هادئًا كطفل مرهق .. داعبت له شعره محاولة كظم البكاء الذي سينفجر مني لا محالَ ، و قلت بعينين اغرورقتا بالدموع : " فريد حبيبي ! أختك الصغيرة جابتلك الأكل الي بتحبه ، شايف ؟ السمك مشوي زي ما بتحبه بالظبط ، جبتهولك مخصوص من المطعم الي كان بيجي على بالك و أنت في لندن "

سقطت إِحدى دموعي و أنا أُقرب قطعة السمك من أنفه لتنسل الرائحة داخل أنفه و ظللت هكذا ثابتة ، و قربت له بعد قليل القليل من الصوص الأبيض و الأرز و حاولت أن أجعله يشمها جميعًا معًا .

طال الأمر و بدا لي غريبًا فوضعت العُلب جانبًا و مسحت أنفي و عيني في محاولة لجمع قوتي .. نظرت لباسم فكان يمسح دموعه هو الأخر ، و كانت أول مرة أرى فيها عينيه تدمعان.

التفتُ بعيني عنه و أمسكت بكوب الشاي و فتحته و قربته من أنف فريد.

"جبتلك شاي كمان من قهوة قُريبة هناك يا حبيبي ، يارب تكون شربت من شايهم مرة على الأقل بعد أكلة السمك هناك "

حولت عيناي الحمراوان إلى باسم مرةً أخرى و أطلتُ النظر ، فقال لي " متهيألي كان نفسه فيه ، و متأكد أنه مبسوط دلوقتي ، هيقدرلك كل دا لم يفوق "

فقولت مُعدلةً : " تقصد لم يصحى "

و ظهرا والداي عند باب الغرفة مع مريم و رحيم فركضتُ مسرعة تجاه أمي .. قفزت في حضنها و انفجرت في البكاء محاولة إخفاء عيني في جسدها.

- هو ليه مش راضي يقوم يا ماما ؟!

- هيقوم يا حبيبتي ، هيقوم عشان خاطرك أنت .

و شعرت بيد أبي تضمني و باسم يربت لي كتفي مواسيًا ، حتى قاطعتنا الممرضة التي تنحنحت في برودٍ و قالت " الدكتور مستنيكم جوا "

8

و حتى بعد الهول الذي وجدته في فراقك ، و الأمل الذي يتقلب على فراش المرض .. ما زلت متمسكًا بالحب ،و أظنُ حبًا كحبك يستحق كل هذا ، لأنه لم يكن حبًا عاديًا أبدًا .. كان شيئًا تتجنبه الكلمات و الصفات خوفًا من افتضاح قصورها .

(محمد علوان)

قادتنا الممرضة الظريفة إلى غرفة الطبيب فكان جالسًا و في يده بعض الأوراق يقرأها و لم يبدو عليه التركيز.

جلست أنا و أبي و معنا رحيم في مكتبه و بعد الترحيب و المقدمات التي لم ترقني ، أوضح لنا الطبيب أن فريد في حالة مستقرة منذ يومه الرابع و لكن نوعًا ما هناك فقد في الاتصال بين مخه و جسده تمنى الطبيب أن يتحسن مع الوقت أو تظهر عليه أي بوادر تبشر بقرب تعافيه و لكن دون جدوى .. رغم وضوح نواياه و مقاصده من بين السطور في البداية ، إلا أنه حدد مُهلة إن مرَّت دون تحسن حالته ، سيكون وجوده في المشفى إهدار للوقت و المال ، و مماطلة في معاناة أخي الذي سيعاني الضرر دون جدوى.

و قد قدرَ أنه في حالة افاقته قد يُعاني ما تبقى من أيامه من (متلازمة كورساكوف - korsakoff 's syndrome)

شد أبي على يدي و لف ذراعه حول كتفي اثناء حديث الطبيب الذي تمنيت لو انتهى سريعًا بعد كل كلمة تخرج من فمه .. لم انتظر جملة أخرى و خرجت في بُطء دون اعتذار خارج هذه الغرفة البغيضة و رافقتني غصة في حلقي .. لم تنزل مني الدموع و لم أبكي كالأطفال ، خرجت فحسب و لحقني رحيم و كان الجميع منتظرًا في الردهة و معهم باسم .

جلست في هدوء على أحد المقاعد ، نكَّست رأسي و وضعتها بين يدي لعلها تهدأ ، لم أنبث بكلمة و لا خرج الصوت من فمي .

جلس باسم بجانبي بعدما حدثهم رحيم بكلام الطبيب ، جاورني و قبَّل لي رأسي في أسى و قال لي " متخافيش ، هتدبَّر ، ربنا معاه" .

قد قرأت قدرًا لا بأس به عن متلازمات متعلقة بالإصابات على المستوى المخي ، وما تسببه من أعراض جسدية و نفسية .

رأيت فيها بشر منهم من عانى من متلازمة كورساكوف بشكل شامل و جذري على المستوى البصري مثلًا ، بعد الاصابة بورم في المخ جعل من المريض أعمى فورًا، ولكن ليس ذلك فحسب، بل محى كل ذاكرته البصرية من صور و مشاهد و غيره، حتى صار في جوهره كائن غير مبصر، حيث أنه لم يشعر حتى بفقد البصر و عدم رؤيته لمن حوله، بالإضافة لارتباكه حين سماع مصطلحات كالرؤية و الضوء .

و قد قرأت عن آخر اصيب بالفقد في ذاكرته ارتجاعًا من عام ١٩٧٥حينها و حتى عام ١٩٤٥ .. مما يعني محو ثلاثة عقود من عمره ، بالإضافة لتوقف ذاكرته هناك أيضًا ، حيث أنه تقريبا صار سجينًا في العقد الخامس من ذاك القرن ، سجين يومٍ بالتحديد ولا يستطيع الخروج منه ، حتى كان أحد المرضى في حالة ضياع و ارتباك مستمر ، كان له زوجة و اطفال .

تخيل أن تستيقظ كل يوم في مكان غريب كدار مسنين و أنت تتذكر أنك نمت في المنزل بالأمس .. فجأة صار حولك أطباء و مرضى و يُحيط بك الدواء و الملاحظة و العجز مجتمعين .

تخيل كم هو رهيب أن تجدهم حولك بدون سبب يفحصونك و يغرسون بك الإبر و يحبسونك في غرفة عند هيجانك لفشلهم بالسيطرة عليك.
تخيل أن تعود لمنزلك وتسأل زوجتك لِما يبدوا جيراننا في الشارع أكبر سنًا؟ لم ألحظ هذا من قبل، أو كيف يُزيلون سينما في المدينة و يقوم مكانها سوبرماركت في ليلة و ضحاها ؟ تخيل أن تكون عبئًا كهذا !!
ملأت لي الأفكار رأسي حتى فاضت ، و رأيت أخي في هؤولاء المرضى جميعًا.
كم هو مثير للشفقة أن يرى الجميع ما بداخلي هكذا ! أن يراني الكل و أنا أُهاجم مباشرةً في نقاط ضعفي .. أن يروا الشِباك تُصب مُتتالية فوق رأسي و فوق رأس من أحب .. أن يلتفوا من حولي وأنا هشة كورقة زجاجية رقيقة ، بسيطة الدهس و الهرس ، كأن لا تعلم كيف تنتشلني من على الأرض عندما اقع ، ولا تعلم كيف تعالج شروخي إن تصدعت .. كم هو مثير للشفقة حالي و أنا ضعيفة مُكبلة الأيادي هكذا ..!.. كان لدينا الكثير من الوقت يا أخي لنفكر ، الكثير فعلًا .. و لكننا لم نفكر في أي شيء.
و لكن أنت يا الله قد رأيت كل شيء ، و علمت كل تلك الأمور جميعًا .. ترى يا الله دومًا و تفحص ما بنفوسنا .
سمحوا لي بأن أبيت مع أمي في غرفة فريد و تركنا أبي و معه رحيم و مريم، كما ودَّعني باسم لأنه لن يستطيع المبيت بعيدًا من الاسكندرية لأشغاله المعتادة، على أن يطمئن عليَ أولًا بأول.. لاحظت الشفقة في عيني رحيم لكوني وحيدةً حتى ظننت عينيه الحزينتين تعانقني بمغادرة باسم .

دقيقتين فقط و اصبحت وحدي ، جلست بوجهي المحتقن و عينيَّ المنتفختين على ذات الكرسي أمام أخي و امسكت بدفتره بعدما غَفت أمي لأقرأ بعضًا من بَوحِهِ لعله يشفي غليلي .

* * *

مارس ٢٠١٦ - لندن

جلسنا أنا و رحيم اليوم في أحد المقاهي العتيقة بالولاية، نتبادل الهموم ، لم نكن سعيدين كما يظن الكثير .. عانينا كثير جدًا و لأعوام حتى وصلنا إلى هنا .. نجتهد و ندرس و نسهر لأعوامٍ مطولة جدًا بحثًا عن راحتنا و رخاء مستقبلنا ، و لكننا لا نجد سوى المتاعب و العناء و سوء المُعاملة .

ستكون خيبة أمل كبيرة لنا و للجميع حولنا إن عدنا إلى مِصر خالي الوفاض .

نحن جيلٌ كنا في منتهى الفقر دومًا ، عانينا النقص في كل شيء .. لم نجد في بيوتنا مشاعر الحب ، و جُلنا نبحث عنه في الطرقات و الأزقة و في زوايا السُبل و وسط الأودية ، حتى جهلنا تمامًا أنه ينبع أولًا فينا و من أحضان من انجبانا .

و تعطشنا للعطف و الرقة و حسن المعاملة .. لم يُخبرنا الكثير عن قيمتنا ، فصرنا مُجَوَّفي النفس فارغي الروح ، و هِمنا على وجوهنا كآنية فارغة تبحث عن أي شيء يشغل جوفها ؛ فأمتلأ بعضنا ماءً و بعضنا رمل ثقيل و أخرون بطينٍ مُوحل انتنت رائحته ، و صار كل منا إناءًا ينضح بما فيه .

نحن جيل قد ملأت النواقص جوفه، تفرقنا فارغي النفس والقلب.. عانينا الوحدة و القسوة و عشنا آلامنا في عذاب العزلة .

نحن جيل صار يتألم فاعتاد جسده الألم دون التأوه، فاصبحنا في يوم لا نحمل مشاعر أكثر من الموجودة في جثة غارقة .. تحملنا مسؤوليات في صغرنا لم يجب حملها، وعشنا ليالٍ تركت فينا العطب والعطل و التعوق والجفاء .

فقدنا الشعور بالضغط ، و فقدنا الشعور بالتحسر والندم، فقدنا الشعور بالخطية حتى قالت انفسنا" يا الله لو كان عندي عبدٌ مثلي لقتلته ".

فقدنا طفولتنا و ما ميزنا من أجنحة الملائكة .. فقدنا الإرشاد حتى أن بعضنا بحث عن الجنس في أقذر حفر الطريق .. شِخنا مبكرًا دون أن يعلم أحدّ بأمرنا .. لم نجد من يهتم بقلوبنا التي تتألم ليلًا حتى ظننا أنها سُنة الحياة ، فمللنا الانتظار و قَبلنا راضيين .

عشنا المرارةَ دون حبيب أو قريب أو مرشد .. بللت أعيننا فراشنا معظم أيام المراهقة في بعضها أو جُلها أو كُلها .

فقدنا الاحساس بكل شيء إلا الإحساس بالجوع و لذة الطعام .

* * *

اغلقت المذكرات و قد زادتني أسى لهمومه و شفقة عليه ، و زادت رغبتي في البكاء للغاية .. كان سيكون مريحًا جدًا لو كنت استطيع البكاء بين ذراعيك الأن يا عزيزي .

مسحت أنفي و الدموع من عيني قبل أن تبلل وجنتاي و اعددت كوبًا من القهوة و الحليب و فضلتها على النوم .. كنا نحب أن نشربها سويًا في المساء إذا راق لنا السهر و السمر أو ربما مشاهدة فيلم .

قربتها من أنفه ساخنةً لنعيش هذا سويًا و ابتسمت ، باسم يوافقني الرأي بأنه يشعر بما أفعل و سيتذكر عندما يفيق السمك و القهوة و الشاي جميعها .

متأكدة أن محبتي تملأه الأن للغاية ، فالمشاعر تنتشر كالعطر في الهواء ، تنتشر بسهولة و تتخلل القلوب و تعبرها بمنتهى اليُسر ، حتى أنه ليس من الصعب عليك أن تشتمها و تنبض بها عضلات صدرك .

فالطاقة بكل ما تحمل من إجابٍ و سلب ، فهي منظورة تمامًا مكشوفة دائمًا .. لن تعجز عن كشف شعور من أمامك بنظرة منك إليه تنسَلُ بها لداخله و تفحص ما بين ضلوعه .

فمشاعرك و إن كانت رقيقة نحوي فلن يختفي من عينيك العطف، ولن يُبهم ما حملت لي من حب بين جفونك، وأنت لن تعجز عن إدراك ما إذا كنت أبادلك الشعور أم لا .

و على النقيض تمامًا يكون أحمق من كان يمقت أحدًا و يظن أنه لا يرى فيه الارتباك والحِنق والسخط وغيرة الحسد في عينيه ..

المشاعر طاقة ، و الطاقة تعبر الصدور كما يعبر الحبر قطرات المياه.

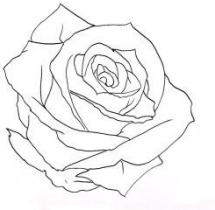

9

إنها الأمل الذي ينبعث من الورود عندما تُسحق

(أمل فرجاني)

بدأت استفيق و تفتحت عيني ببطء على ضوء الشمس المعتاد و ثرثرة العصافير .. بقدر ما أحب زقزقتها إلا أني امقتها حين توقظني باكرًا بعد يومٍ مُتعب ، و أتعجب فيما تثرثر منذ الصباح الباكر!

ارسلت رسالة إلى باسم اطمئنه أنني بخير حال و ذهبت لأعد كوبًا من الحليب .. لاحظت أن أمي قد غادرت باكرًا لتهتم بأبي و مريم فلم أنشغل بالأمر عن الكوب الساخن في يدي .. أحب الحليب ، و أحبه جدًا .. القهوة لطيفة و الشوكولا رائعة و أنا أحبهم جدًا ، لكن لكوب اللبن أو الحليب في يدي مكانة أخرى .. اتذكر كوب الحليب بالكاكاو الذي أعده لي فريد صباح اليوم الذي توفى فيه جدنا ، لم يكن والدينا بالمنزل ، كنت أنا تلك الطفلة الوحيدة مع أخيها الكبير ذو الأربعة عشر عام فقط .. كنت حزينة من أني لن أرى جدنا مرة أخرى و كنت أبكي بشدة ولا أفهم ماذا يجبر أبي و أمي على تركنا غير راضيين عن الوضع في حيرتنا تلك .. كنت أشعر بالفزع حتى أعد كوبًا ساخنًا من الحليب و قال لي " اشربي دا يا حبيبتي و أنا جنبك ، هتبقى كويسة " .. ثم وضعني في حضنه في تلك الليلة الباردة و كوب الحليب في يدي ، و لم يرخي يده من حولي طوال نصف ساعة كاملة شربت فيها كوب الحليب حتى آخر نقطة منه ، و كنت مع كل رشفة أِشعر بالأمان أكثر ، حتى نسيت انتظار أمي و أبي ، و نسيت الارتجاف و البرودة ، و نسيت أين أنا ! .. شعرت بطمأنينة جففت لي دموعي ، و أرخت لي هلعي و أذهبته ..

من يومها إن استأت كان يعد لي فريد الحليب و يجلس بجانبي حتى اهدأ ، و كنت اهدأ ، اهدأ جدًا حتى تملأني الراحة و يسكن قلبي في هدوء .. لطالما كان أخي خفيفًا مطمئنًا ككوب لبن دافئ ..

وقفت أمام المرآة بامتعاض وفي يدي كوبي محاولة رؤية فريد في شعري البني وعيناي الزرقاوين كما أخبرني أبي، ولكن بانعكاس صورة فريد المسكين راقد خلفي تلاشت رغبتي في ذلك فورًا .

ذهبت بالحليب تجاهه و قربته من أنفه ليشم المزيد من القهوة لعل ذلك يُخفف عنه و يشعره بقربي، ثم جلست شاردةً أشرب القهوة في صمت اتأمل الراقد أمامي حينًا، وأسرح في خيالي حينًا بعينين واسعتين كأنني لم انم بعد .

قلة النوم تدمر أعصابي و تركيزي و يومي و حياتي كلها .. لا شيء أسوء من قلة النوم بالنسبة لي ، سأظل مرتخية الأعصاب حتى الظهيرة و لن أفلح في رفع قلمٍ حتى .

نبهني عن شرودي صوت إشعار في الهاتف، اليوم ستقام مباراة العودة بين النادي الأهلي و نادي النجم الساحلي .. كان سيحضر فريد هذه المباراة بالطبع .. لقد حضر مباراة الأهلي و الزمالك من قبل في نفس يوم وصوله من لندن .

أريد أن أحضر هذه المباراة من أجله حقًا ، و أنا تَوَّاقة لمعاينة هذا الحدث، لكن بالطبع لم احظى بالوقت و التركيز لحجز تذكرة حضور في

الأيام الماضية .. لكن من حسن حظي بعد نصف ساعة هاتفني رحيم و اخبرني أنه يملك ثلاث تذاكر للمباراة كان قد ابتعاهم عند وصوله ، واحدة من أجله و أخرى لفريد و الثالثة من أجلي !

أغلقت عيناي في ألمٍ كظمته عندما سمعت " من أجلِكِ " تلك و هي تخرج من فم رحيم .. بالطبع كان قد أوصى أخي بذلك .. رحَّبت بالفكرة و سعدت بها جدًا .. قد صارت هذه المباراة تعني لي الكثير الآن .

حدد معي رحيم موعدًا ليأتي و يأخذني إلى الاسكندرية لحضور المباراة و كان مناسبًا ، على أن نتناول الغداء سويًا في أحد المطاعم قبل رحلتنا .. لانشغال باسم بأعمال معقدة ، كان آسفًا جدًا لتفويت عرض رحيم بمشاركته إيانا المباراة بالتذكرة الثالثة ، و قد أحزنني ذلك في الحقيقة .. بعثت برسالة إلى أمي أخبرها بأني سأذهب لحضور المباراة مع رحيم .

جلست أفكر ولم يسعفني كوب القهوة باليقظة المنشودة منه ، بل اعتقد أنه زادني توترًا و ارتباكًا .. عقدتُ يداي و ارحتُ ظهري على الكرسي اتأمل في فريد النائم و في نبضات قلبه على الشاشة أمامي ، و لم تبدُ لي النغمات الخافتة النابعة منها مُزعجة ، بل كان استمرارها مُطمئنًا لي بالطبع ، حتى مساءًا في نومي .. في الواقع اخشى ألا استطيع النوم فيما بعد بدون هذه التكتكات .

اخرجتُ إحدى كتبي و بدأت في الدراسة قليلًا .. سيقترب موعد الامتحانات لنهاية العام عاجلًا أم آجلًا .. حاولتُ أن أدرس و لكن بدون جدوى

ملحوظة ! كيف لي أن أدرس؟ هل سيدرس شخص لاختبار بعد بضعة شهور و هو لا يعلم إن كان سيعيش حتى الاسبوع المقبل أم لا !!

حفظك الله يا أخي و لكن الحياة بدونك لا ترتقى لأن تكون حياة .. سأظل خافتةً هكذا حتى تستيقظ .. اِنطَفَأَت نور بغيابك يا عزيزي ولن يضيئها نورٌ سوى نورك .

مر الوقت ببطء حتى دقت الثالثة ظهرًا فبدأت بتجهيز نفسي ، سيمر رحيم بي بعد ساعة و سنتناول الغداء في أحد المطاعم التي كان يتردد عليها مع أخي .

انتهيت من ارتداء ملابسي و جمع حقيبة ظهري ، و قد ربطت شعري (كحكة) لتجنب ارهاق الحرارة و الطريق أولًا و لأنه ليس وقتًا مناسبًا للتملق على أي حال ، و مع قميصي الجينز و بِنطالي القصير الأبيض صرتُ مُستعدة .

ذهبتُ للشرفة و بِاتِكَائِي عليها لمحت سيارة رحيم الزرقاء في الأفق فابتسمت بإعلان بدأ الرحلة و حملت حقيبتي .. قبلت خَدَا فريد من هنا و من هنا و ابتسمت له مودعة و همست في أذنه: " هجبلك معايا حاجة حلوة ، مش هتأخر عليك يا حبيبي" .

و قد بدا لي أنه ابتسم ، فتابعت الابتسام و اغلقت باب الغرفة و رحلت .

- الي يشوف شعرك في الشمس و انت فوق كدا يفتكره أصفر مش بني .

ابتسمت له في حياء و عجزت عن الاجابة، لم أعلم إن كان هذا مدحًا أم ملحوظة، لكن لا يهم.. لا أعلم حقًا كيف يستطيع البعض الرد على الكلام المعسول أو المجاملات، إن فاجئني أحد و قال لي أنه يحبني قد أقول له " حَبِتَك العافية " أو شيء كهذا من كلام جدتي .

ركبنا السيارة و عندما أدارها بدأت فيروز التي تطاردني في الغناء .. يا ليت كل المطاردات مثل صوتك يا ست فيروز.

بدأ رحيم في الكلام و قد بدا لي حكيمًا جدًا مثلما كان في مذكرات أخي، ولهجته المميزة حينما يُسرع و يندمج في الحديث ، و وجهات نظره المختلفة دائمًا التي بدى لي فيها جميعًا على حق ، و نصائحه المثمرة التي تجعلك تبدو صغيرًا أمام هذا الكهل بخبرته التي قد تفوق المئة عام أو شيء و هو ما زال في عقده الثالث .

كثيرًا ما حكى لي أخي عنه ، انه لطالما رافقه منذ بدأ دراسته كلية الطب ، و عن أنه خير صديق لا تمل مجلسه ولا تضجر محادثته ولا تَكَلُ معشره .. و على الرغم من اختلافي دومًا مع أخي حول الأشخاص ، إلا أنني أتفق معه على أن رحيم قد يكون شخصًا ملفتًا للنظر.

وصلنا إلى المطعم و جاءنا النادل فطلب رحيم شريحة من اللحم و سألني عما أفضل على الغداء ، فأخبرته أن يطلب لي كما كان سيطلب فريد ، فأخبر النادل بأن يجعلهم قطعتين من اللحم بدلًا من واحدة .

بالطبع كنت سأشتهى شيئًا دسمًا كهذا بما أني لم آكل أي شيء منذ الصباح .. أنا أحب الطعام في الحقيقة و اتذوقه جيدًا - أحب الطعام وليس أن آكل - أحب أن أُجرب أشياء جديدة .. قمة المتعة في تجربة الطعام عندما تجرب أكلة جديدة أثناء تضورك بالجوع و تتفاجأ بأن الطعام رائع ، هذا كفيل بأن يجعلني أحب هذا الطعام للأبد و ألجأ له في جوعي مجددًا و ان أحب الموسيقى التي كانت في اذني حينها هي و عازفها ، و من تناول معي الطعام أيضًا ؛ أنا استمتع بالطعام لهذه الدرجة ، لكن على الرغم من ذلك أنا نحيفة ولا آكل كثيرًا ، أحب أن اتذوق و استمتع بما في فمي فقط .

هكذا كانت قطعة اللحم التي كان يأكلها أخي مع رحيم هنا إذًا ! أحببت رائحتها و هي ترحب بي بنزولها على الطاولة ، و أحببت مذاقها في فمي ، كما أحببت الموسيقى التي كانت في خلفية المشهد .. سألت رحيم إن كان يعرف العازف فقال أنه (جون وليامز – john Williams) ، لقد قرأت هذا الاسم مرة في مذكرات أخي ، فهو يحبه للغاية كما يحب (ياني - Yanni) ، و قال لي رحيم خصيصًا أن هذه المعزوفة في المطعم بالذات كان أخي يسمعها باستمرار في لندن ، فأحببت الموسيقى و عازفها ، كما أحببت مجلس رحيم الذي تبادل معي الحديث طوال ساعة تقريبًا و لم نشعر بها .. تحدثنا عن أشياء كثيرة و كان مثقفًا مُطلع على كثير من المجالات .. كان

دائمًا لديه ما يقوله إن كان الكلام مفيدًا، و طريقته الساخرة في نقض الافكار التي وجدها سخيفة جعلتني أضحك .

انتهينا من وجبتينا و كنت سعيدة بزيارتي هذه جدًا، وسوف آتي بباسم مرة إلى هنا و سيعجبه المكان .

تحركنا صوب الاسكندرية ولم تطل رحلتنا كثيرًا.. ظلت تؤنسني فيروز طوال الرحلة، ولشدة انسجامي و نشوتي لم يُرِد أن يقاطعني رحيم وراقني ذلك .. استمتعت برحلتي الهادئة من قبل بداية المباراة حتى، لم يؤرقني سوى أننا خسرنا مباراة الذهاب أمامهم في تونس بهدفين نظيفين دون رد، لذا قد نودع الأبطال .. اتمنى أن أعود سعيدة اليوم من هذه المباراة .

و ها نحن هنا في برج العرب، صخب الجمهور، والالتراس والتالتة شمال و هذه الأشياء التي تشعل الأدرينالين فيَّا .

كنت سأجن عندما أحرز (أزارو) ثلاثة أهداف كما أحرز (معلول) و (النجَّاز) و (رامي) ، بينما احرز لاعبو النجم هدفين فقط .

قد ذهب صوتي تقريبًا طوال المباراة ، و قد ارهقت رئتاي من التنفس بقرب الشماريخ المشتعلة .

رافقني رحيم لاشترى بعض الأشياء قبل عودتنا ، و في الطريق قبل الخروج من الاسكندرية طلبت منه أن أجلس أمام شاطئ البحر قليلًا .. هدوء البحر في الليل يتسرب إلى قلبي ، و ضوء القمر فوقه يخبرني بأن كل شيء

سيكون على ما يرام ، و صديقي الجديد يقدر الهدوء مثلي كما يبدو ، فكان لي خير أنيسٍ في وحدتي .

كل شيء كان هادئًا كما تشتهي روحي أن تكون هادئة الآن.. النسيم الرقيق، صوت موسيقى المطعم لا زال في أذني، حمص الشام الذي احضره لنا رحيم قد دفَّأ لي قلبي، رأيت زرقة السماء الداكنة وكأنني ابصرتها لأول مرة في حياتي، ابصرت نجومًا جديدةً لم تعهدها عيني من قبل، وتلاشت غيوم فوقي كنت لم ادرك وجودها من طول مكوثها ساقطتا على رأسي .. لم يكن الأمر غريب لي، آخر ما تلاحظه الأسماك في المحيط هو الماء ، لكن الأمر برمته ملأني بالطاقة فحسب .

كان سيكون لطيفًا و مفاجئًا منك يا أخي أن تظهر الأن من اللا شيء وتجلس بجانبي .

اخرجت من حقيبتي لوحَ شوكولا بالبندق واعطيتها لرحيم مبتسمة ابتسامة من قلبي، وأخبرته أنه أسعدَ لي يومي و أن كل شيء كان مريحًا ومبهجًا.

أخذها بابتسامة لطيفة و أخبرني أنني كنت خير رفيق له بحسي الفني وشهيتي في المطعم و صخبي في الاستاد .. و بهدوئي الأن .

- تعرف يا رحيم ، أنا مش مهووسة بالورد يعني .. بس لو هتجيلي وردة واحدة في حياتي ، فعيزاها تبقى وردة كادابول ..

- كادابول !

- أه، زهرة نادرة كدا قريت عنها .. نوع من أنواع الصبار بس ليها ورق أصفر كدا .. الوردة دي بتطلع في الخريف بس ، تفتح ورقها في الليل ، وتموت و تدبل في الفجر .. متخيل ؟ عمرها بيبقى كام ساعة بس .. بيقولوا ريحتها مميزة و مهدئة ومش ممكن تصادفها مرتين في حياتك .. ملهاش مثيل في العالم ، بيسموها ملكة الليل .

- مش متفاجئ إني بسمع المعلومات دي من واحدة مثقفة زيك ..

تجاذبنا أطراف الحديث لبرهة وركبنا السيارة.. أكملنا طريقنا تجاه القاهرة و من فرط هدوئي وسلامي لم اشعر بطريق العودة أيضًا، ولم أشعر أن الوقت قد تأخر، كنت اعتقد أنني سأكون في المشفى قبل ذلك بكثير.

وصلنا و صعدنا فوجدت أبي و أمي و معهم مريم، كانت مريم تجلس و بدا التوتر عليها في عقد يديها وعينيها الغاضبتين.. اطمئن رحيم علينا ورحل.. وضعت أشيائي داخل الغرفة و عدت إليهم متسائلة عما يجري، فحاول والداي انتقاد غيابي كل هذا الوقت باستمرار وبدأت أغضب عندما شرعا في توبيخي.

قامت مريم دون مقدمات تحدثني ببرود لا يناسب رعشة يدها ، وتحاول ألا تنتفض جفونها .. بدأت تسألني أين كنت منذ الصباح و ماذا فعلت وإذ ما كان مناسبًا حضور المباريات و التسكع بينما أخي يرقد في مشفى، وبمناقشتي إياها في أني احتجت أن أفعل هذا فحسب رفعت صوتها عليّ

وسبَّتني أمام الجميع وقالت لي أني فتاة صغيرة مدللة لن تتحمل المسؤولية أبدًا .. ظلت تصرخ بصوت مكتوم محاولة كظم غضبها ، اعتقدت للحظة أن هذه اليدان اللتان تتلوحا في الهواء ستصفعني إحداها على وجهي الآن أو بعد لحظة .

لم يتملكني الغضب حينها بقدر ما تملكني الخوف منها و هي تهاجمني بالألفاظ و أمي تحاول تهدئتها دون جدوى ، حتى أوقفها أبي و صاح بوجهها كي تصمت أخيرًا فصمتت .

أشفقت عليها و هي ثائرة بالرغم من كل شيء و ودت لو اعتذر منها عن أني تسببت في تلف أعصابها و لكن أبي و أمي أخذاها إلى المنزل بعدما تأكدت أمي من أنني بخير.

ذهبوا جميعًا و تركوني وحيدةً مع أخي في المساء كالعادة .. في ثبات أغلقت الباب و وضبت مجلسي بجانب أخي كعادة ما قبل النوم و لكن أخيرًا ..... انفتحت بالبكاء .... الغصة في حلقي قتلتني اثناء محاولتي خفض صوتي .... أكره حياتي .... أكره تحملها .. أكره دراستي و منزلي و مريم ، حتى أني أحيانا أكره والداي .... أكره فريد الذي يتركني أعاني وحيدة و أكره رحيم صديقه .... أكره المشفى و الطبيب البارد و ممرضته البغيضة و أرغب حقًا في الموت ... بكل جوارحي يا الله ، أريد أن أموت ..

كنت أشهق و أبكي و أندب حظي ، و اترجى أخي أن يفيق ثم أسبُّه لأنه لا يستجيب .. اخرجت له قميص النادي ، اشتريته ذكرى له لأنه حتمًا كان

سيشتريه، واستمريت بالبكاء فوقه فأغرقَته دموعي.. ضاق صدري وامتلأ بالسواد و الاختناق من عجزي عن التوقف.. بللت قميصي بالدموع كأني لم أبكي منذ عقد، اعتقد أنني سأموت الليلة من الفرط في البكاء .. وبعد الكثير من التنهد حاولت جمع نفسي و نظرت للسماء.

ذهب الجميع، فقط بقى معي الليل.. الأن أنا أخاف الليل كالصغار، وأخاف من الظلام، خارت قواي، أنا ضعيفة جدًا، أنا كائنٌ شديد الهشاشة، لست رقيقة بل هشة، خاطري أقل سُمكًا من أوراق اللعب.

فأنا لست بهذا الثبات الذي يظنوني عليه، أحيانًا أكون هشةً رقيقةَ الجدار، بعض المياه كافية لتملأ جوفي وتمزقني.. أحيانًا احتاج لأي شخص و إن كان غريبًا كي أفرغ نفسي أمامه قبل أن أغوص للأبد.. أحيانًا يتخللني الشك وتذهب ثقتي إلى حيث لا أعلم، أصير كطفلة تحتاج بعض النجوم على ورقة مع الشكر.. أحيانًا اتلعثم كمتوحدة ولا أجيد تكوين جملة مفيدة.. أحيانًا تُثقل الهموم كاهلي حتى تطرحني أرضًا و تقطع أنفاسي، أحيانًا تقتلني.. أحيانًا يغوص قلبي جدًا حتى يتخدر، تنقطع عنه الدماء، يتقلص، يتضطرب، يزرق، ويتوقف.. أحيانًا أقف في شرفتي دون حراك لساعات كصنم.. أحيانًا يشق عليا أن استمر في الحياة لساعة أخرى، أحيانًا أغرق في الكآبة حتى أثمل.

أحيانًا أموت..

رفعت عيني للسماء، وكانت النار قد اضرمت لهيبًا في صدري.. ثم صرخ قلبي قارعًا أبواب السماء قرعًا" يا الله، يا إله السماء و الأرض !! أعلم أنك هنا اليوم كالكل سابقًا، فرجاءً يا إلهي؛ احتضني بقوة، عزز نفسي، وعلِّي أسواري، وعضد دفاعاتي.. حل فيا بروحك الطاهرة، و اجمع شتاتي في شيءٍ مريح، فينتهي كل هذا الشيء الأسود المؤلم بداخلي.. رجاءً يا الله أرجوك"

و من ثم ارتعش قلبي و جسدي معًا، وجلست باكية غير فاقدة للرجاء .. قد فقدت هدوئي و لكن لم أفقد سلامي لأن الله يجيبني قبل أن تشرق الشمس.. قبل أن تشرق الشمس كما يفعل دائمًا، كانت إجاباته دومًا تأتي مع الشروق خلف كل فجر حينما تلامس رأسي الأرض في السجود، وأنا علمت مواعيده وأنها لم تكن صُدفًا؛ ولذا قررت انتظاره فجرًا، فَلَمَسَت رقته بشرتي الناعمة و شعرت أن الحريق بداخلي قد بَرُد.. وقد كان سلام.

قد علمت أنه هكذا قد أحب الله الحق، إذ أوضح لي غوامض حكمته وخبياها.. لينضح عليا بزوفاه فأطهر، ليغسلني فأبيض أكثر من الثلج، ليُسمعني سرورًا وفرحًا فتبتهج عظامي المنسحقة .

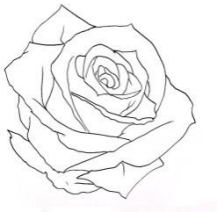

10

إن قلب الرجل متقلب متلون ، يُسرع إلى البغض كما يُسرع إلى الحب ، و أن هذه المرأة التي تحتقرونها و تزدرونها و تضربون الأمثال بخفة عقلها و ضعف قلبها .. أوثق منه عقدًا ، و أمتن ودًا و أوفى عهدًا .

(الرافعي)

مرت ليلتي السيئة، ولكن لم يحالفني الحظ بقليلٍ من النوم حتى، الساعة ستدق الخامسة في أي وقت، لم يَفِق أخي اليوم كما ترجيته وترجيت السماء، كان سيكون وقتًا مناسبًا جدًا ليفيق فيه، ولكنه.. لم يفعل.

لذا استمريت في قراءة مذكراته أملًا في تهدئة النار بداخلي، فوجدت فصلًا كاملًا عني !

عن كم أن صوتي عذب ورقيق ويبهج الروح والنفس ولطالما أشاد به كما فعلوا جميعًا وخصوصًا زملائي في الجامعة، فغنيت مرة في الأوركسترا ومرة أخرى على قناة مشهورة في الراديو.

ذَكَرَ كل هذا، وكم أنه مستاء من أن الكلية قد ارغمتني على إهمال موهبتي، و أنه كان يحلم أن أشترك في هذا البرنامج المشهور بين مسابقات الغناء للشباب، وأنني وإن اشتركت يومًا سوف أحصل على المركز الأول أو الثاني كمغنية العرب للعام.

و في آخر الصفحة أردف جملة حرَّكت نفسي بداخلي مجددًا: "صوت هذه الصغيرة يعيد روحي لي إن فُقِدَت، و يجدد الأنفاس في صدري إن ضاقت ، و يبعث فيا الحياة إذا ذَهَبت ".

فنظرت له و دمعت عيناي و همست في أذنه :

" أنت فاكر نفسك أحمد شوقي و أنت بتتغزل في صوتي بالشعر يا بكّاش ! "

جففت عيناي.. تنحنحت، واستقام ظهري جالسة كالهوانم أمام التلفاز ورفعت أنفي في السماء كأن أم كلثوم بنفسها ستغني له، ثم قلت له وكأنه

يسمعني : "أديني هغنيلك، لم أشوف روحك هترجعلك زي ما بتقول ولا لا".

وبدأت في الغناء كما لم أغني قط، ملأت الغرفة بالعُرب الهادئة التي نبعت من صميم روحي غاية في أن تصل إلى روحه هو الأخر .. وخاطب قلبي قلبه تحت ستائر الفجر و خيوطه :

بعدك على بالي يا قمر الحلوين
يا زهر بتشرين يا دهبي الغالي
بعدك على بالي يا حلو يا مغرور
يا حبق و منتور على سطح العالي

و لم أتوقف عن الغناء لنصف ساعة ، و اعتقدت أنه يبتسم لي و لكن لم يكن هذا ليكفيني ، تمنيت لو كان يعني ما يقول حقًا بأن صوتي يُعيد له حياته ، و لكنه لم يقصد هذا حرفيًا على ما يبدو و خدعني كما كان يخدعني في طفولتنا و يَعدُ بأشياء لا يفي بها .. سأحاسبه على هذا عندما يستيقظ .

و لكن لن أخيب آمالك فيا يا أخي ، و سأعمل جاهدة لتحقيق ما رغبته فيَّ ، سأقدم في هذه المسابقة و سأفوز فيها بمركزٍ يُرضيك .

مرت بضع ساعات صامتة في الغرفة.. لكن صاخبة مؤذية بداخلي .. هرب مني النوم تمامًا حتى الحادية عشر صباحًا و هربت معه راحتي كالمعتاد، ولكن لسببٍ ما ظلَّت الطاقة فيَّ، و كأنني أُعاند طبيعتي والحياة معًا .. لم أنم البارحة، و لن تخور قواي أيضًا، سأظل على قدمي حتى المساء ولن يرمش لي جفن .

وقفت أمام المرآة و عقدت (كحكة) شعري و شمرت عن سَاعديَّ كمن يتهيأ للقتال، ونظرت للمرآة ولَفَتَ تَصَنُعِي القوة و الخشونة نظري.. لو كان فريد ينظر لي لقال أني ما زلت أبدو لطيفة و(كِيوت) ،وأني إن حاولت مواجهة الحياة بمظهري هذا لماتت الحياة ضحكًا بمقابلتي .

لم أأبه بتلك الافكار كثيرًا و ذهبت لأعد القهوة و شغلت موسيقى المطعم المفضلة لدى عزيزي حتى يسترخي في نومه .

جلست أشرب قهوتي فتلقى هاتفي رسالة ، تفحصتها فوجدتها من رحيم .. كيف يتقن هذا ارسال الرسائل لي و أنا اشرب القهوة في كل مرة ؟ شيء مُلفت للانتباه .

اخبرني أنه لديه بعض الوقت للغداء إن احببت مشاركته ، و أنه سيأتي ليصطحبني في الثالثة إن راقت لي الفكرة .

كنت سأخرج للغداء خارجًا على أي حال فأنا لا أفضل مقابلة مريم الآن بانتظاري في المشفى .. لا اعرف إن كنت مستعدة لمقابلتها أصلًا في حياتي مرة أخرى أم لا .

اخبرته أنني سأكون في انتظاره حينها و أغلقت .. اخرجت بعض الكتب لأدرس و استطعت أن أدرس بالفعل ، كان هم فريد فوق رأسي و لكن تجاوزت هذا لأثبت أنني استطيع أن أدرس ، و كانت فكرة أن مريم ترفع صوتها عليّ تؤرقني و لكن مرَّرتها بعيدًا و تجاوزت الأمر ، فقد قررت أنه لن يستطيع أي شيء سرقة الدم الأخضر من عروقي فيما بعد .

اندمجت في كتابي حتى أن الساعة الثانية قد دقت من ربع ساعة و لم ألحظ ، و كنت قد أنجزت جزءًا لا بأس به فيما أدرس .

هممت مسرعة لأرتب حالي من أجل الغداء و ارسلت رسالة لأمي ثم ارتديت قميص جينز أسود ، شمرته و ارتديت عليه بنطالي الأزرق و الحذاء الرياضي الأسود و نزلت كي انتظر رحيم على الطريق كي لا ينتظرني هو مجددًا مثل البارحة .

و فاجأني عندما لمحته أول الطريق ، رحب بي بابتسامة و انطلقنا .

لاحظ رحيم شحوب وجهي و انتفاخ عيني و قال لي أنني لم أنم جيدًا البارحة ، و لما كان قَلقًا و بدا عليه الارتياب من حالي حكيت له عما حدث بالأمس بعد رحيله و أنني على الرغم من اشفاقي على مريم إلا أن جزءًا مني يمقتها بشدة الآن .

اصغَى لي في تركيز صامت لم يخلو من الانتباه للطريق و اغلق النوافذ وشغَّل المكيف ؛ كي ننعم بهدوء الحديث حتى وصولنا .

ظل صامتًا و تأملت ملامحه الحادة و هو يفكر ، بشعره الأسود القاتم المرتب و لحيته و جسده الذي بدا لي صُلبًا كجسد هرقل الناعس في المشفى .

كان غارقًا في التفكير تمامًا كأنه فقد ادراكه بوجودي بجانبه حتى أنه لم يلتفت لي ، و أنا حافظت على هدوئي متأملة فيه تارة ، و في الطريق تارة ، و قد أثار فضولي عما سينتهى به هذا الصمت و ماذا سيكسره !

وصلنا و كان يبدو لي أنه تحول و صار جِديًا للغاية ، لا أعلم ربما ضايقته وأنا اتحدث ! ربما لم يعجبه موقفي في غضبي من مريم زوجة صديقه ؟ أو ربما لأن الأمر قد أثر في لهذه الدرجة ! قد يكون مُستاءٌ لحالي بمنظري الرث كالزهرة الذابلة وعينيَّ اللتين لا يعرفا الراحة أمامه ؟ أو ربما لاحظ صراعي مع كل شيء و أنني اِنهَرتُ عدة مرات ! .. عندما ينظر لي اعتقد أنه يقرأ داخلي ، و أنني مكشوفة أمامه ، و هذا يُربكني .

فتح لي الباب و جعلني اتقدمه و لم ألحظ أننا كنا أمام نفس مطعم البارحة ، كيف عَلِم أنني كنت سأطلب هذا المطعم إن سألني عما أفضل؟ ربما أراده هو أيضًا .

جلسنا على نفس الطاولة و بدأت الموسيقى نفسها بدخولنا المطعم فصار لي الأمر دراماتيكي و تعجبت من الصدفة الغريبة !

ثم نظر رحيم في عيني للحظات اعتقدت أنه نوَّمني فيها مغنطيسيًا ، ثم بدأ في الكلام دون مقدمات و هو ينظر في عيني ، بكلامٍ مضمونه أنه يعلم أن

الوضع ساء فجأة و جعل للصراع بداخلي بداية تؤرق نفسي في كل ليلة ، و أنه يعلم أنه لن يُقدِّر الجميع مشاعري تجاه فريد و لن يفهمني أحد سوى باسم .

أنه قد لمح فيَّ اليأس مرة و بغضي للحياة مرتين ، على الرغم من قدرتي على الاسترخاء و اقتطاع الوقت لنفسي بروحي اللطيفة (كما وصفها) .. و لكنه قد لمح فيَّ عدم الرضا في وقت أيضًا ، حتى أنك قد كرهتِ الحياة للحظة و ابغضتِ كل من فيها كما يقول .. و تابع حديثه :

- لكن خليني أقولك على حاجه من قلبي و اتمنى توصل لقلبك أنت كمان.. في الدنيا دي بعد ما ربنا خلقنا في يوم من الأيام ، سابنا في الأرض دي كائنات جديدة متكوِّنتش بشكل كويس و كامل .. من غير تفكير واضح و من غير مشاعر مفهومه أو ماضي أو أحداث ، حتى من غير اسم .. و مكنش أهلنا يعرفوا هنكون أيه بالظبط لم نكبر ، ولا حتى شكلنا هيبقى أيه في المستقبل ، و مكنش عندهم سبب معين عشان يقدموا لينا حب غير إننا كنا ولادهم بس ، و عشان كدا قدموا لينا كل الحب الي عندهم .. و كانت حاجة ميعملهاش أي انسان عشان انسان أبدًا ..

بس هما حبونا ، و حبونا جدًا و من غير مقابل ، حتى من قبل ما يشوفونا أحياء و قبل ما يبقى لينا اسماء ، حبونا حب نقي ، و كانت دي هبة الله الأولى و الأعظم لينا على الأرض .

- طيب ما احنا بنحبهم كدا بردو يا رحيم ! بس هما مش بيقدَّروا دايمًا إلي جوانا ، ولا الي بنمر بيه .

- و هما في وقت بردو كانت أكيد عندهم ضغوطات و أحمال تناسب شاب عدى العشرين سنة ولا أيه ؟ .. حتى من قبل ما يتجوزوا و يبقى عندهم ولاد ، و أكيد مر عليهم وقت ملا دماغهم بالضغط و الضيق من الحياة ، كرهوا حياتهم .. فقدوا استقرارهم .. حبوا يموتوا .. كرهوا كل الناس زينا و اتمنوا لو كأنهم متولدوش.. بس على كل حال حبونا بردو ! حتى لو كرهوا الدنيا كلها، بس حبونا احنا، وحبوا الحياة بينا .

- عندك حق.

- عارفه كدا، زي ما يكون الحب كان العلاج الأول و الوحيد الي بيشتغل من غير مبرر، وبيعالج الكل بعد ما يفقدوا الأمل.. أو زي ما يكون ربنا ادالنا دا هدية عشان تشفي مرضنا من غير سبب أو داعي.. زي ما تكون معجزة تبيِّن محبته هو كمان لينا ، و هي الحب ببساطة.. رجع الحياة لناس بينا، وخلانا نتولد مرغوب فينا بدون مقابل و حوالينا كتير من الحب – الحب بنزين البني آدم – من غير ما يكرهنا حد لأي سبب ، و من غير لا غيرة ولا حسد .. كان عندنا بس الحب.

- بتخليني أحس إن للحب معاني أعمق بكتير من الي كنت بتصورها.

- الحب فعلًا ليه معاني أكتر من الي بنتصورها بكتير .. أنا على طول مؤمن إن أصل الحياة كان جميل و طاهر و نقي زي الحب، وإن القبح والكره

بسواده و ازعاجه مكنش إلا دخيل على الأصل النقي دا .. من عهد أبونا آدم أبيض النفس في عالمه الأخضر ، و بدخول الشيطان بقبحه عليه ، دخل الكره للعالم بنفس الطريقة .

- لكن كبرنا دلوقتي ، بحب زي أي بنت أني أعيط في حضن ماما زي العيال الصغيرة ، دلوقتي شايفه نفسي بكبر ، و قريب هكتشف أني الست الكبيرة الي مفروض العيال الصغيرة يترموا في حضنها ، و خايفه من اليوم دا .. خايفه أخسر قدرتي أني أعيط في حضن ماما .

* * *

نعم .. نكبر نحن بدورنا و تبدأ ضغوطاتنا الخاصة في الإقبال .. نتعرض للكره من حولنا ، بل و قد نكره نحن أيضًا البعض مضطرين و نفقد سلامنا ، و نكون في حاجة لأن نُحِبَ ، لا بل نعشق .. أن نرتبط بهؤلاء الأشخاص المميزين في حياتنا بكل قلبنا ، أن نحبهم بعيوبهم و ظروفهم و طباعهم ، و نبتلع لهم الاخطاء و نجدد لهم الاعذار و نستمر في إعطاء المزيد من الحب .. و لن يُقابل حبنا النقي بالرفض أبدًا أنا أؤمن بذلك ، فنقاء الروح يعيش عليه الأنسان و بدونه يموت .

لذلك لا استطيع أن اتخلي مثلًا عن فريد (حفظه الله) ، فروحي تحب النقاء في حبه .

أجل، يعالج الحب الكثير من الآلام، كما يسبب بعضها أحيانًا، ولكن حتى هذه تظل من رياح الحب.

كان الحب دومًا العلاج، في أن المحبة لا تظن السوء، وأن المحبة لا تطلب ما لنفسها، وأن المحبة تتأنى وترفق.. فكان المفتاح لكل ألم هو الحب ..

كان محقًا، نشأنا بالحب و سنعيش و نموت به .

وصار الحب لنا فريضة في أنفسنا، نشأنا به وكبرنا عليه دون أن نستحقه، نضجنا و أحببنا و عشقنا دون سبب و غفرنا لمن نحب وسنظل نعيش من أجلهم جميعًا (من أحبونا) كما كنا محبوبين طوال الوقت.. فالمحبة قوية كالموت، والغيرة قاسية كالهاوية .

و تردد السؤال في ذهني !

- لو الحب كان دقيق أوي كدا؟ ف ليه مش بنشوفه في كل حاجه حوالينا؟

فيتردد صوته بداخلي مُجيبًا ..

الحب في كل شيء حقًا يا نور، وإياكِ أن تَعمَى عينيك عن رؤية هذا.. في كل مرة استيقظَت والدتك من أجلك واعطتك قبلةً قبل سفرك.. كل مرة دَعَت إلى الله لكِ من قلبها .. في كل مرة سهر فيها فريد لأجل تعبك وآرَقَهُ إجهادك و لم يستطع النوم إلا باطمئنانه عليكِ .. في كل مرة حضَّر لك صاحب المطعم طعامًا لذيذًا مصنوعًا بالحب فقط من أجل ابتسامتك البشوشة التي سحرته .. في كل مرة لعق لك كلبٌ وجهك ليطيّب لكي خاطرك في حزنك .. و في كل شخصٍ ابتسم لكي في الشارع حينما رأى وجهك الهادئ الرقيق .

فقد نشر لنا الله الحب هكذا من حولنا .. لنفطن أن هذا العالم قائمٌ عليه ؛ فبدون الحب يفقد الانسان آدميته ، و بنقاء روحك لن تجهلي أنتِ يا نور وجوده أبدًا ...

لم اعلم من أين أتى بكل هذه الحكمة ! و لكن كلامه انتثر فوق أرض روحي كالبذور الصالحة ، التي ستنبت فيَّا و ستأتي بثمارها .. و قد دوَّنت كل حرفٍ قاله بالفُصحى في مذكرتي.

أتى النادل و طلب رحيم إلى كلانا الطعام و راق لي طلبه و أكلته بشهية و أحببت الأمر .. بطريقة ما يعرف ما سأشتهيه عندما يوضع أمامي ، حتى أنني افكر إن كنت بمطعم فيما بعد بمفردي قد أتصل به لأسأله عما أريد أن آكل الآن !!

جعلني رحيم أرى كل شيء بشكل مختلف، ومع الوقت تغيرت بوجودي معه، صرت أكثر إيجابية و لم أكن حساسة كالماضي أتوتر و استاء من أي شيء بغيض يحدث .. صِرت أثقل عقلًا و أكثر صبرًا و أوفر حكمةً.

أصبحت ممتنة لكل الأشياء الصغيرة التي تحدث في حياتي، ولم أعد أطلب من الله باكية في كل ليلة فرحة كبيرة تقلب حياتي رأسًا على عقب وتغير مجراها لأشياء أفضل .

فأنا ممتنة جدًا للفيلم الذي أحبه واستطعت أن اسمعه بالصدفة بجودة عالية وبدون اعلانات.. وبطاطس (ماك) التي أحضرها لي العامل مقرمشة، كان ملحها جيد جدًا و أكلتها مع الفيلم و كنت ممتنة لكليهما .

و أنا في غاية السعادة لكان (البيبسي) الذي جاء لي مُثلج ممتلئ بالصودا بعد شريحة لحم عبأت لي معدتي وجعلتني شديدة العطش للكولا، وجَعَلَت هذه الوجبة يومي كاملًا للغاية في ذلك اليوم مع رحيم .

و اذكر سعادتي عندما كنت أدرس و دخلت أمي عليَّ بعلبة بيتزا (ميكس تشيز) المفضلة لدي ، أتت لي البيتزا من دون علمي و بغير معاد فأسعدت يومي ، و تذوقت حب و اهتمام أمي لي فيها ، مما جعل لهذه البيتزا قيمةً فعلًا في فمي ، و ذكرى طيبة في قلبي ..

وفي ليلة متأخرة قضيتها وسط الكتب، أسعد ليلتي باسم بمكالمة غير متوقعة بينما كنت أشتاق له و أفكر فيه فعلًا، وكان الأمر مدهشًا جميلًا بالنسبة لي .. و لم تكن مجرد صدفة عَبَرَت فقط .

وعن سعادتي عندما استيقظت متأخرة و متعبة لأذهب للجامعة، ووجدت سيارة متجهة إلى هناك تحت منزلي فوفرَت عليَّ عناء الطريق ومشقة البحث عن وسيلة نقل لنصف ساعة.

و عن المرة التي احتجت فيها سيارة فريد و وجدت بها البنزين الكافي لذهابي و عودتي بينما حسبت أني سأهب لملأها بالوقود أولًا .

ممتنة للسفرية التي تم ترتيبها في ثلاث ساعات دون مشقة التجهيز لها، وللنقود التي وجدتها صدفة في قميصي القديم، وفيروز التي تلاحقني لتسعدني أينما ذهبت حتى في راديو سيارة رحيم، ولقصة شعري التي جاءت كما أردت بالضبط من صاحبة الكوافير.

ممتنة لشعري البني الفاتح الذي يتحول للأصفر عندما تتخلله الشمس ، و عيناي الزرقاوان كالمحيط ، ممتنة لتلك الصفتان في جسدي اللتان استطعت أن انظر لهما في المرآة و أرى عزيزي فريد أخيرًا أمامي كما يراه أبي فيَّ ..

كما أنا ممتنة للصحة الجيدة و أهلي السالمين و زوجة أخي التي تحبه و تصير حساسة ضدي تقديرًا له .. ممتنة لصديقي الجديد الخفيف الروح و الحكيم العقل والبهي الطلعة ، و لكل يوم يمر بدون مشاكل ، أفهل ليست كل هذه أشياء تثير السعادة في النفس؟

لم يتوقف رحيم عن التأثير في و استمر تغيير مفاهيم الحياة لدي طوال الوقت معه .. كأنَّ السماء قد أرسلت لي من يُرَبِيني من جديد ، على أني طفلة لم تعرف معنى الحياة و خباياها أبدًا من قبل .. و كأنني كنت أنظر إلى لوحة الدنيا من بعيدٍ ، حتى أتى رحيم و أمسك بيدي و دَلَفَ بي إلى داخل اللوحة لنعيش تفاصيلها معًا ، فكان خيرُ صديق لي في غيبة فريد و باسم ، خير صديق فقط إلى أن جاء يوم و تغيير هذا قليلًا .

* * *

أتذكر في هذا اليوم أننا كنا مسافرين في عطلة ضرورية نوعًا ما ، نجوب جزءًا جديدًا لنا من العالم .. و قد سارت الظروف لنا لزيارة هذا المكان حينها بدون تخطيط .

ذلك اليوم كنا نتمشى في مدينة ما من الدنيا و حولنا الناس من يتكلموا بلغة لم نفقه فيها و لو القليل ، كنا سعيدين في هذا الشرود معًا على الرغم من أن الاكتئاب قد تمكن مني ليالٍ قبلها .

ساحل طويل جدًا على المحيط الأزرق لا تصل أعيننا لنهايته .. مدينة واسعة للغاية برتقالية اللون في جميع جوانبها تقريبًا على الرغم من أنك قد تراها بالأبيض و الأسود مثلي بادئ الأمر .. بيوتٌ و مبانٍ عملاقة و فخمة للغاية تحمل ذات الطراز .. شوارع واسعة جدًا تحمل خمس سيارات بجانبٍ واحد .. وُرود و موسيقى و طعام في كل مكان لتدفئة القلب من البرد القارص ..

و أثناء هدوءنا المعتاد و تأملنا للمحيط الواسع ، كنت انظر و يداي معقودتان في معطفي من شدة البرد ، عندما التفت رحيم إليَّ و أوقفني و بدأ في الكلام .

- قرأت يا نور مرة أن حاسة الشم مميزة عند الانسان للغاية ، و أن ذاكرتها قوية جدًا معظم الأحيان ، مميزة لأنها ستربط دائمًا الرائحة بشعورك حينها .. فمثلًا لو أحضروا لكي أكلة جديدة في وقت سعادتك سترتبط رائحتها بك و ببهجتك وقتها ، و ستسعدين في كل مرة تأكلين فيها هذا الطعام ، و سيعرف أنفك رائحتها دومًا .. و على النقيض إن جلبت لك نفس الطعام في استيائك ، لن تحبي أن أقدم لك هذا الطعام كثيرًا فيما بعد ، سيشم أنفك فيه رائحة الحزن .

و قرأت أن من سافروا حول العالم كانوا يميزون جدًا الروائح التي تعرفوا عليها في المدن الجديدة ، يميزوها بدقة ، و يسعدون إن صادفوها مرة و يتذكرون الرحلة بالكامل ، فالجسد يحب أن يربط الشعور بالرائحة .

لذلك قد اشتريت اليوم هذا العطر خصيصًا لكِ ، عطر الكدابول .. عطر ملكة الليل و الجمال تحت القمر .. عطر يناسب ملكة جميلة مثلك لا يصادفها المرء في حياته مرتين .. سيذكرك بهذه اللحظة إلى الأبد و يذكرك بروسيا و مدينة (سان بطرسبرج) ، و بالساعة الباردة التي قدم لكي فيها شابٌ وسيم ذو لحية مرتبة عرضًا تمنَى لو تقبليه في تلك الساعة .

.. و في هذه اللحظة و وسط اندهاشي و صمتي و نظري بعينين مرتفعتين تسبح في عيني هذا العملاق ، ركع على ركبتيه في مشهد أربكني .. أخرج من جيبه زجاجة عطر ، وعلبة بها خاتم يلمع ، ثم أردف في هدوء : " أنا أحبك يا نور ، أتقبلين بي زوجًا ؟"

11

قَدِر كل نفسٍ تتنفسه، احتفل بحياتك، عِشها.

لا تمت قبل أوانك.

السعادة الحقيقية تكمن في الامتنان و الاقرار بالمعروف .. لذلك

كن ممتنًا ، كن على قيد الحياة ، و عِش كل لحظة للنهاية.

(مونيبا مزاري)

بالطبع كانت قد مضت مهلة الطبيب قبل أن يفيق أخي ، لم أكن أحب المكان هناك ولا تفاءلت به من الأساس في أن يعيد لي فريد مرة أخرى ، و لكن بمجلسنا الأخير مع الطبيب قد وضَّح لنا أن هناك تحسن ملحوظ على مستوى الدماغ و القشرة المخية ، و أنه إن وُضع وسط إمكانيات أفضل ستصير فُرص إفاقته أكبر قليلًا عن مكوثه هنا ، لكن يظل مصيره بيد الله ولا نريد توقع شيء سيء، و قد تكرَّم أيضًا و اقترح علينا اسم مشفى متخصص بمدينة سان بطرسبرج بروسيا و قال أنه سينال العناية اللازمة هناك بشكل كامل .

لم تمضي ثلاثة أيام و كان أبي قد رتب الرحلة و الإقامة كاملة بالمدينة الروسية على كونها سياحة علاجية مفتوحة لستة أفراد : أبي و أمي و مريم و فريد و أنا و كذلك رحيم ، الذي رفض تمامًا أن يتركنا وحدنا نسافر بفريد إلى هناك ، لكن في قلبي كنت أشعر في رحيم ما هو أبعد من ذلك بقليل .

جلست على كرسي المساء المفضل لدي و اتصلت بباسم و أخبرته أنني أريد قضاء الليلة معه بالإسكندرية و أخبرته بعدم وجود مساحة اختيار له بالموافقة أو الرفض ، فأنا افتقده و عليَّ مقابلته رغمًا عن أنف العمل الذي ورائه .

و فَرح جدًا بخبر قدومي ، و قال أنه كان يحاول أن يدبر الأمر قدر المستطاع ليزورني بالقاهرة و لكن دومًا ما كان يفشل ، و لم يكن يريد تشتيتي بعرض منه لزيارة الاسكندرية الآن في هذه الظروف .

فرحت جدًا أني سأقابله ، افتقد هذا الفتى كما يفتقد الدب للعسل إن غاب عنه .

و بابتسامة نمَّت عن السلام بداخلي نظرت لفريد أمامي في راحة و قبَّلت له خده عدة مرات ، و ظللت أمرر أصابعي بين خصلات شعره و ابتسم و أقبَّله مرة أخرى .. اقترب من أذنه و ابدأ في الغناء همسًا بهذا الصوت الذي يبعث فيه الحياة إن ذهبت ؛ لعله يفتح لي عينه الليلة و يرمقني بنظرة .

حبيتك لما لقيتك

بتغير كل حياتي

معرفش ازاي حبيتك

معرفش ازاي يا حياتي

كنت سعيدة في هذا اليوم ، و كان رحيم في بالي أيضًا ، ارسلت له رسالة لأخبره عن سفري إلى الاسكندرية غدًا لباسم إن كان يَوَد مرافقتي ، فقال لي أني سأفضل قضاء اليوم مع باسم بمفردنا أكثر ، و لم أعرف كيف لي أن أرد على هذا ، فرحيم يعلم أكثر مني على أي حال كما اعتدت .

شغلت بعض الموسيقى بصوت خافت كي لا ازعج أخي النائم و امسكت بمذكراته لأقرأ القليل

في ذلك اليوم أفقت مع الشمس كالخلّان والأصدقاء، لاحت بوادرها من الرابعة فجرًا أمامي، تحسست اشراقها يبعد عني بساعةٍ واحدة .

فصل بيننا كوب من القهوة وألحان أم كلثوم وبعض الحبر والورق، ولحية نمت كغابة عهدت حرارة الاستواء لطف النسيم .

ظهرت شمسي و تشاطرنا النهار كأحبة من نصف العقد الثاني من القرن الواحد و العشرين .

و كأنَّ نهاركِ لا ينتهي يا عزيزتي ، و كأنني لم اعهد الأقمار يومً في عهدي .. كم سألت نفسي لِما يبدو المشترى وحيدًا و حوله أربعة و ستون من الأقمار ، ألا يؤنسك أحدهم أيها المشترى !

أما أنا و إن كنت مشترى ، فلم أكن لأدعو أحدًا بالقمر سواكِ ، فأنتِ شمسي و قمري معًا .

أنا اليوم سعيد ، و أشعر أني محظوظ بكوني على هذا الحال ، لا أبالي بالمشقة و ارهاق الحياة ، اعتقد أني بدأت أدرك قليلًا قول رحيم لي في أن السعادة الحقيقة تكمن في الامتنان و الاقرار بالمعروف فأنا لست جائعًا في الصومال أو مُهجرًا من سوريا ، أنا لست مدمن أفيون في أفغانستان أو عبد جنسي أُنتهك مبتسمًا في أمستردام ، و أنا لست مبتور الأطراف في سريلانكا أو مضطهدًا معذبًا في نيجيريا .

أنا لا اعاني خطر الإبادة الجماعية في بيلاروسيا (روسيا البيضاء) بسبب عرقي ، أو الكوارث الطبيعية في اليابان ، ولا اعاني خطر الحرب في فلسطين الأبية و الاحتلال ، أنا لا اعاني الوباء في الأحياء الفقيرة ، ولا يمتلكني معتوه (sadist) في كندا أو أمريكا

فلكي يعيش البعض بأمان يجب على الكثير أن يعانوا الخطر ، أما أنا فمحظوظ بكوني فقط فوق بقعة آمنة الآن تحت الشمس و أنا اقدر هذا .

* * *

اغلقت المذكرات بنفس ابتسامتي و هدوئي، اسعدني ما قرأت جدًا ، وجعلني أشعر أن فريد يبادلني نفس الشعور الأن بالرضى ، و إن كانت حكمة رحيم ظهرت مجددًا بالصورة ، لكن بغض النظر تلك الصدفة اسعدتني ، هذا اللطيف بكتاباته المعهودة يثير شعور الرقة بداخلي كلما قرأت له، طبيب أنت أم أديب ؟ كم أنت مليء بالمفاجئات دومًا يا أخي الحبيب و كم أفتخر بك !

أنا أعلم فريد جيدًا أكثر من أي شخص .. قد فطن في طفولته على أنه يجب أن يصل الي مقام اجتماعي معين ، يجب أن يعرف الكثير و يجب أن يكون خفيف الظل و صاحب دعابة ، أن يكون قيادي و فكاهي و قوي و لا يستطيع أحد أن يغلبه في نقاش أو نزاع أو أي شيء ، شاب قوى و مختلف الاطوار هكذا ، كانت تقوده البيئة حوله إلي أشياء غريبة و عادات أغرب بكثير من وجهة نظري.

و لكن كان هذا يمثل النجاح بالنسبة لي و أن خلفيته الشرسة العنيدة هي التي صنعت الفارق في نظري ، فكان يجب أن تكون ناجحًا في حياتك بهذه الطريقة بالنسبة له .

و لكن توفرت له الظروف من فترة معينة كي يبتعد عن تلك البيئة و أصحابها ، ليصير وحيدًا ينشئ بيئته الخاصة و يتربى فيها من جديد ، فأصبح لا يمت للعالم بصلة ولا يمت لهؤلاء سكانه برابط ، صار له عالمه فاختلف عنا جميعًا ، لا يشبهنا ولا نشبهه ، لتعتقد أنه لا ينتمي لعالمنا أصلًا ، و أنه أميرٌ ولد في الوقت الخطأ من الماضي أو شيءٌ كهذا .

للحق كان العالم بداخله أوسع بكثير جدًا ، صار صامتًا لا خِشية من الكلام و لكن حبًا في الهدوء ، فقط ليسمع صوت عقله و العالم بداخله فينصت للطبيعة و كل شيء بداخله ، ليتصل بأصوات كانت يقينًا في نفسه ، تُحدثه بما حوله و تخاطب عقله و يدور نقاش صامت كثير الأفكار في لحظات .

كان العالم بداخله أوسع جدا من أن يتركه و يذهب ليتخالط بقليلي العقل و الروح .

كان هناك دومًا شيء يحدثه بالداخل :

" فيما بدأت ؟ و لما ؟ .. و إلي ماذا ترمي او تبتغي ؟

أترى مكانك ؟ اتذكر لما أنت هنا ؟ هل هناك سبب لوجودك الأن أم أنك تحيا فحسب ؟ كيف هو مستقبلك ؟

اتعلم من أنت و في حضرة من وضعك الله ؟ .. أن كنت تسير في الجحيم الآن ، هل ستموت محترقًا و أنت جاثٍ علي أقدامك ؟ أو أنك ستتابع السير إلي أن تصل أو تموت راكضًا كالرجال ؟ "

الي حد ما هو بهذه القوة و رجل مستقر جدًا ، لكن في أعماقه كان لا يزال سوى هذا الطفل الغير المستقر الغاضب من بلاده و بيئته ، هو يستخدم ذلك الغضب و عدم الاستقرار الذي حصل عليهما في الطفولة ، هذا الغضب " سأريهم ، يعتقدون أني ما زلت ذلك الطفل الصغير المغرور عديم القيمة و لكن يوما ما سأريهم من أكون "

فصار مستقلا بذاته و بروحه و عقله ، قاسي الخطوات مختلفًا ، لا تكاد تخالطه حتى تدرك أنه لا يشبه أحد قابلته ، فقط ينتمي لأشياء أخري لا تكتب و لا توصف ، جَعَلت منه طبيبًا مفكرًا محفزًا مُنقذًا حكيمًا غريب الاطوار.

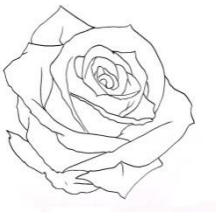

12

و مع ذلك ما أيسر إدخال السرور إلى قلبها حتى في هذه الأيام.
بعد كل ما اصابها فهي تجد متعة صبيانية في أتفه شيء ،
تضحك من أبسط نكتة ، يستثير حماسها أي كتاب
(ستيفان زفايج)

مع الفجر كالعادة استيقظت ، نمت جيدًا بالأمس لنومي المبكر الغير المعتاد ، الفجوة البسيطة بين الستائر سمحت بزيارة الشمس المحببة لي إلى الغرفة لتوقظني .

اشحت بعيني الناعسة تجاه أخي فوجدته كما تركته أمس ، لكن بدا لي مرتاحًا ويستمتع بالصباح مثلي، قمت من سريري، غسلت جسدي وأسناني وصنعت كوبًا كبيرًا من اللبن و اضفت إليه القليل من الكاكاو، فريد يحب ذلك كثيرًا ، لذلك قربت الكوب إلى أنفه ليشم بعضه ويستمتع به برفقتي ، و هكذا استمريت ، أجعله يشم القليل بعد كل رشفة مني .

انتهيت منه و قمت ببعض التمارين و القفزات أمام المرآة مستغلة نشاطي النادر اليوم و أنا استمع لمقطوعة (جون وليامز) المفضلة لأخي من المطعم .. و في الواقع لم أكتفى بالاستماع فحسب فقد تمايل جسدي مع اللحن يمينًا و يسارًا و بدأت أرقص في هدوء و صمت و أنا مبتسمة ابتسامة طفل يتذوق الشوكولا المفضلة لديه على معدة فارغة .

امسكت بهاتفي و اتصلت بباسم عندما اكتملت الشمس في الشوارع و في غرفتي و بدأت اتحدث عن آخر الأحداث و شوقته جدًا عن حكاية رحيم معي من رحلة العشاء و المباراة في برج العرب و حديثنا في الغداء الذي طال و تجمَّل ، و حتى وصلت إلى اقتراح الدكتور الذي قبلناه بالسفر إلى سان بطرسبرج و أن رحيم قد أصر على مرافقتنا إلى هناك .. و قد أبدى باسم اندهاشه الشديد من تكرار اسم رحيم ، و سروره بتبشير الطبيب لنا

باحتمالية إفاقة فريد ، و كان متشوقًا جدًا لمعرفة التفاصيل مني على أني لم أخبره إلا بالعناوين الرئيسية فقط .

صوت باسم يبهجني ، يبهجني للغاية ، أحب أن أتحدث معه و افتقد صوته إن طالت غيبته .. لم يكن لي صديقٌ من قبل كباسم ، حتى ما أبغض الاجازات التي تجعلني أمضي معظم وقتي بالقاهرة بعيدًا عنه، واتوق لتمضية الليلة معه .

جهزت حقيبتي و اخترت أحد كتب الروايات الخاصة بي لأقرأه في الطريق ، و ارتديت بعض الملابس المريحة لتناسب طول اليوم ، ثم جلست لنصف ساعة بقرب فريد أمسك يده و أشرد بالنظر إليه ، ثم ارتديت حذائي وخرجت .

وضعت فيروز في سماعة أذني واستمتعت بالطريق حتى النهاية، ولم يمضِ الكثير من الوقت حتى وجدت نفسي بالاسكندرية أمام بيت باسم. لم تكن الساعة قد تجاوزت الحادية عشر بعد، وأغلب الظن أنه يغط في نوم عميق.

صعدت الدرج و استقبلتني (طنت) أمه التي تحبني كثيرًا ، قبلتها و حضنتها لدقائق ، تخبرني كم تفتقدني و تفتقد النميمة معي و لمة الشاي بليل ، و جلسنا نتسامر و نتضاحك لعشرين دقيقة ، بعدها ذهبنا لنوقظ الماكر الذي لا يزال نائمًا و طال الأمر بالطبع ، في العادة يستغرق عشر

دقائق فقط ليفهم من أكون و أين هو و ماذا يفعل بالضبط ، لكن نبرة صوتي نهته فأفاق أسرع لأنه يشتاق لي بالتأكيد .

قام المتكاسل من سريره و هو يترنح ويفرك عينيه و عانقني و صاح في اذني " أشتاق لكِ ! " و انفتحنا بالضحك و القهقهة .

صنعت لنا والدته الغداء ، و كانت حضرت لي طبق من أطباقي المفضلة التي تصنعه بامتياز و هو (المكرونة بالبِشاميل) ، ساخنة و رائحتها تفوح يتمدد سطحها بعيدًا كالبيتزا و يكاد فمك يرقص مع كل شوكة تضعها فيه ، تداعب نعومة حباتها وسط الخليط الساخن فمك ؛ من طعمها الشهي و من حرارتها عندما يقلبها لسانك .. شيء رائع لا يمكن وصفه ، تظل هذه الوجبة من وسط كل أنواع الطعام لها مكانة مميزة في قلبي بكل ما تحمله الكلمة من معنى ، لو كانت المكرونة بالبِشاميل (من يد طنت والدة باسم) رجلًا لتزوجته!

انهينا وجبتنا الشهية ونحن نتسامر في جو عائلي يروقني ، نشاهد أحد أفلام التسعينات و نضحك و لا تَسِعُنَا الدنيا حقًا .

أحب هذا المكان جدًا ، روحي تحبه ، و تحب باسم و والدته أصدقائي المقربين من قلبي ، و هل يوجد دفئ كدفئ العائلة ؟ أو ألفة أكثر رقة من الألفة التي تَنسَل إلى قلبك حينما تجلس بجوار أمٍ تشعرك بالأمان ولا تشعر معها بالوحدة و الوحشة حتى لو كنتما في قلب الغربة ، تملأ البيت بالحب و الطعام و أصوات الضحك ، ما أدفئ المكان هنا ! و ما أجمل هذه

السيدة الممتلئة بشعرها المرتب البني ! التي تجعلك تشعر أنك في زمن اسماعيل ياسين أو ليلى مراد .

أرجو ألا يطول غيابنا في روسيا ، فسأشتاق لكل هذا حتمًا .

و بعد مكوثنا حتى بعد الظهيرة بقليل خرجنا في السادسة و ذهبنا إلى السينما ، كان فيلمًا مرعب بشكل غير لطيف و لكن ممتع .. غير واقعي ، لكننا لم نكف عن الابتسام و الضحك ، كنا نشعر بالأدرنالين يتدفق في كلينا و كنا نستمتع بهذا جدًا ، في الحقيقة إن كنت تعرف باسم جيدًا سوف تستمتع معه بوقتك و إن قضيتما اليوم على رصيف الطريق .

تناولنا الفشار و الحلويات ورقائق البطاطس و بشهية شخص لم يأكل من البارحة أو قبل ذلك .

و على الساعة التاسعة و النصف خرجنا من السينما و كان الهواء قد اشتد قليلًا و لكن احتفظ برقة لمسته الباردة على بشرتي ، و راق لي ذلك للغاية ، كانت الاسكندرية ترحب بي و تودعني .. وداعٌ لفترة لن تطول كما اتمنى .. كان شاطئها هائجًا يناديني ليحتضنني بعض الوقت قبل السفر ، كانت السماء نصف صافية فرأينا اللوحة مكتملة بالغيوم الملبَّدة آخر مرمى البصر ، آه أيتها الاسكندرية كم أعشقك و كم يستهويني مجلسك ! ليس بك شيء لا ينم عن الرقة و اللطف و الألفة و الوداعة ، لو كنتِ شخصًا يا مدينتي لكنتِ في منتهى اللطافة و الجمال و سعة الصدر ، فلا يحمل ما بداخلي من صراع سوى الاسكندرية دومًا ، ولا يسعني مكان أكثر

من شاطئها الخفيف ، صديقي الذي أناجيه و يسمعني بالنظر في عينيه الزرقاوين فقط .. يقول لي أخي أن عينيك الجميلتين قد ملأهما الله بمياه البحر المتوسط فاكتسبت من هناك زرقتها ، و لما أخجلني حينها اتهمته بأنه يتكلَّف الشعر و يستخدمه عبثًا لمغازلتي ، حينها قال لي " إن كنت جيدًا في كتابة الشعر ، فغالبًا ستكونين قلمي يا نور " فأخجلني ثانية و تجنبت الرد عليه حتى لا يستمر وجهي في الاحمرار أمامه ، لأنه دائمًا ما سيجد ردًا أرق من سابقه .

تذكرت كل هذا و دعيت له الله بأن يستيقظ لي سالمًا .

نبهني باسم في سيرنا بشرودي الذي طال ، و قال لي أنه غالبًا ما يحترم تفكيري المطوَّل ، و لكن ليس لنا سوى اليوم معًا ، فلندع التفكير جانبًا الآن ، فوضعت التفكير جانبًا فعلًا و بدون مقدمات طلبت أن يعزمني على العشاء فقد جعت ، و لم اتفاجأ برده المعتاد بأنني أجوع كلما رأيته ولا أشبع طالما كان رفيقي في الطريق ، معه حق فبطني لا تمتلئ معه ولا أعرف السبب حقًا ، فباسم فاتح للشهية ، أنا أُصدق هذا .

أخذني إلى مطعم بسيط يُطل على الشاطئ مباشرة ، أحب هذا المطعم لأنه رغمًا عن بساطة مجلسه و ديكوره ، إلا أن طعامه نظيف و راق و بسعر مناسب للجميع ، فبتجنب التكليف المبالغ فيه و الأشياء الباهظة دون سبب ، جعل هذا المطعم يضم جميع طبقات المجتمع ، فهنا أسرة بسيطة تقضى وقت رائع بطعام شهي ، و هنا رجل أعمال كبير لا يقاوم

ورق العنب الذي يقدمه الشيف هنا كما يبدو من حماسه بوضع الطبق أمامه .. أنا أحب كل شيء بسيط ، التعقيد يصيبني بالتوتر ، و الترف الزائد يصيبني بالاشمئزاز ، أكره المطاعم و الكافيهات و الفنادق الفارهة ، حتى أنني لا أطمئن لعملائها و زبائنها كثيرًا .

جلسنا و صفقت بيدي متحمسة للطعام كالأطفال وأضحك هذا باسم جدًا كما أضحكني، وانتشرت بهجتنا في المكان كله حتى أن الجميع كان مبتسم و سعيد، ولم تخفى هذه الطاقة اللطيفة عن النادل بشاربه الأشيب ، فلمحنا مبتسمًا و أتى بابتسامته الخفيفة وسألنا " ماذا يشتهى الأميران على العشاء اليوم ؟ " فأجبت مسرعة دون تفكير على الرغم من أنه كان ينظر لباسم : "ورق عنب طبعًا" فضحك باسم مجددًا وعجز عن الرد لم خبأ وجهه بيده و استمر في القهقهة .

استمر النادل في الابتسام في لطف و أومأ برأسه إيجابًا و انصرف ، قال لي باسم و هو لم يستعد هدوءه بعد أنني مفرطة في الطاقة اليوم و هذا جيد لأنني لن أفقد حرارتي و طاقتي حتى منتصف الليل على الأغلب .

فاجأنا النادل بعد أطباق الأرز و السلطة و الصوص الأبيض ، بأنه أحضر لنا سمكة مشوية كبيرة لكلينا كهدية من المطعم ، للسعادة التي تسببنا فيها للجميع ، و كان هذا مبهجًا لأبعد مدى ، جعلنا نأكل في سعادة وطمأنينة و كأننا في منازلنا ، كان مرحب بنا جدًا هناك و سنصبح زبائن المطعم المفضلين فيما بعد بالتأكيد .. كثيرًا ما نذهب لمطاعم فاخرة

ونشعر أن زيارتنا غير مرحب بها، بل نشعر بطاقة سيئة في كل المكان حتى أن الطعام كثيرًا ما يقف في حلقي ولا استطيع اكمال الوجبة بدون رشفة ماء بعد كل لقمة و أخرى .

وعدت نفسي في ذلك اليوم أنني سأفتح مطعمًا مثله في الاسكندرية فقط من أجل إسعاد الناس و بهجتهم ، سأقدم لهم الطعام الذي يحبون بأنسب سعر ، فقط لأشعرهم بمدي ترحيبي بهم و حرصي على سعادتهم ، ليتذكروا دومًا السعادة التي قدمتها لهم مثلما قدم لي هذا المطعم اليوم ، سيكون هذا دينًا في رقبتي إلى أن أفتتحه بالفعل.

انهينا وجبتنا وسط سعادة عارمة في بيتنا الجديد على شاطئ الاسكندرية، و اشترينا علبة شوكولا كبيرة جدًا أنا و باسم و قمنا بتوزيعها على كل زبائن المكان و العمال ، كما ذهبنا للنادل اللطيف و قدمنا له الشوكولا و الورود أيضًا والتقطنا معه صورة تشع منها البهجة كلما نظرت لابتسامتنا العريضة فيها .

لا استطيع أن أوصف السعادة التي بدت في عيون الجميع ، خصوصًا أنا و باسم، ملأنا هذا بطاقة الدنيا كلها حرفيًا ، حتى أنه فاض معنا الكثير من الشوكولا قمنا بتوزيعها على المساكين و عمال الشوارع اللذين ليس لديهم الرفاهية ليشتروا لنفسهم شوكولا باهظة الثمن وسط قسوة الحياة تلك.. كانت السعادة في عيونهم تساوي العالم بما فيه، طار قلبي إلى سابع سماء و رفرف، كانت الاسكندرية بأسرها سعيدة هذا اليوم وليس أنا

و باسم فقط ، فلطالما آمنت بأن السعادة الحقيقة تكون في أن تمنح السعادة للآخرين ، و أن السعادة التي تأتي من اسعاد الغرباء في الشوارع لا تضاهيها سعادة ، و أن البهجة في عين كل شخص مسكين تسببت في اسعاده تمنحك في كل مرة حياة إضافية فوق حياتك ، و أن هذه الطاقة الجيدة لن تفارقك أبدًا ما حَيَيتَ .

و في سيرنا بعد انتهاء الشوكولا نظرت لباسم نظرة بلهاء و قلت له أننا نسينا أن نأخذ قطعتين لأنفسنا ، وافقني أن الجميع قد تمتع بالشوكولا ونحن لم نتذوق شيئًا حلوًا بعد حموضة السمك و ورق العنب ، و بدت لنا فكرة (المولتن كيك) فكرة ممتازة بعد كل هذا العناء ، فنحن نستحق قطعتين كبيرتين لنا بالتأكيد ، فكانت لذيذة جدًا على الرغم من عدم موافقتي في البداية على الكافيه الباهظ الذي اختاره باسم ، لكنني استمتعت بها جدًا في الحقيقة ، ربما لوجود باسم و الألفة التي ترافقه .. كم كنت أشتاق لهذا العبث كله ! فالوقت الذي أضيعه مع باسم ، ليس وقتًا ضائعًا .

و انتهيت ليلتنا الحافلة بجلوسنا أخيرًا على شاطئ البحر بعدما توفر لنا القليل من الهدوء ، فأنا احتاج للهدوء دومًا في الليل بعد كل يومٍ صاخب، و كان يومنا صاخب بما يكفي .

زحمة الأُمسية لم تعطنا فرصة لنتحدث قليلًا كما قال باسم، سأسافر بالغد ولكننا لم نُفضي بمكونات قلوبنا هذه الليلة، وكان هذا آخر ما أحتاجه اليوم.

قال لي باسم أن شيئًا جديدًا يراه في، يراني أكثر نشاطًا و أكثر حيوية من كل الأيام التي مضت.. أنا هكذا دائمًا بحكم العادة و لكن اليوم كنت مختلفة بالنسبة له، و لمن أنكر هذا، قال ببساطة أنني شيئًا بي قد تغير، لفحة الحزن التي كانت ترافقني حتى في سعادتي قد ذهبت، فعندما كنت سعيدة اليوم ، ظللت سعيدة فقط، وسأكون سعيدةً غدًا وسأكون كذاك بعد غدٍ أيضًا .

فأخبرت باسم عن كل ما جرى الفترة الماضية وشرحت له كل هذه المشاعر بداخلي .

كما أخبرته عما قرأت بمذكرات فريد الأديب ، و عن رفع صوت مريم علي و بكائي و صلاتي إلي الله ليلتها ، و أخبرته عن اليومين اللذين قضيتهما مع رحيم و عن كلامه و تفكيره ، و قد استنتج أن رحيم و كلامه هما من غيَّرا فيَّا كثيرًا و جعلاني أرى السعادة في كل شيء حولي هكذا و لم أنكر أنا أنه كان سببًا في جعلي أفكر بشكل مختلف قليلًا ، فضحك باسم لمماطلتي ومحاولتي لتجميل الكلام عبثًا.

كانت على وجهه ابتسامة بلهاء غير مبررة، أيظنني وقعت في الحب ؟ في الحقيقة أنا قد نضجت، كوَّنت شخصيتي في كل شيء و لكن لم أزل أجهل

عما يقصدون بهذا النوع من (الحب) ! براءة الأطفال لم تفارقني في هذه النقطة إلى الأن ، و كنت أمينة و جديةً جدًا في حديثي هذا مع باسم ، و هو يعلم تمامًا أني لا اعلم كيف سأشعر حتى إن وقعت في الحب يومًا ما .. أنا أجهل هذا بحق .

و قال باسم أن الأيام بيننا ، " سنرى إلي أين سترمي بك الأيام يا نور الصغيرة ! "

و انتهيت أمسيتي مع صديقي العزيز .. كنت أحتاج لقضاء ليلة أخيرة معه قبل سفري، وخصوصًا أني لا أعلم متى سأعود.. عانقني بشدة واستغربته قليلًا .. قلت له قد لا أعود نور القديمة بعودتي من الخارج ، فقال لي أنه عانقني بشدة لهذا السبب ، فهو يعانق نور القديمة للمرة الأخيرة ، فهي بدأت تتغير من الأن أساسًا .. ابتسمت له و أخبرته أن مكانه في قلبي لن يتغير أبدًا ، و أن شروق الشمس من الغرب حتى أيسر من هذا.

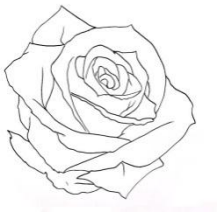

13

في بعض الأحيان حينما تكون السماء صحوة صافية ، نقرأ بأنفاس محبوسة ، بارتجاف ، كما لو أن أحدهم قد (سار على قبرنا) .. كما لو أن ذكرى قديمة منسيَّة عُثر عليها فجأة في داخلنا – التعرف على شيء ما سبق أن عرفنا أنه كان موجودًا أو على شيء لم نشعر به إلا كوميضٍ أو ظل .. هذا الذي ينطلق منا و يعود إلى داخلنا قبل أن نعرف ماذا حدث!

(ألبرتو مانغويل)

لم اشأ أن أنظر للنافذة بجانبي كثيرًا، أكره لحظات الوداع، وكان منظر مِصر من أعلى سيكون خليقًا بالإعجاب حقًا، لكنني لم أنظر .. أحب مِصر، أحب الحديث عنها أمام الغرباء والتفاخر بأصلي أمامهم، دومًا ما يتحدث أصدقائي عن رغبتهم في الهجرة وترك البلدة بأكملها للأبد، وبحديثهم المنطقي عن الحياة خارجًا والامتيازات المتاحة لهم أرى هذا معقولًا للغاية، لكن ببساطة أنا لا أريد ذلك.. لطالما كان الترك صعبًا عليا في هذه الأمور ، لن اقول أنه وفاءٌ مني ، لكن أنا لا استطيع تركها فحسب، لا استطيع توديع صخب القاهرة وهدوء الاسكندرية، لا استطيع ترك أهلي وباسم و ذكرياتي هنا، لا استطيع كشعراء الجاهلية أن أبكي على أطلال مصر كلما شعرت بالوحدة و أنا خارجها، فالبكاء في وطني خيرٌ من البكاء خارجه.. لذا أغلقت ستارة النافذة فحسب وسأصبر على رحلة روسيا تلك، لكن سأطيل النظر من النافذة في العودة، وهذا وعد.

كانت أمي بجانبي ولاحظت اغتمامي فهوَّنت عليا قليلًا بالأحاديث وبعض الحكايات والقصص كما كانت تفعل كلما رأتني حزينة في طفولتي.. أحب أمي، قد رأت عيني تخالطها الدموع فوضعت رأسي فوق صدرها وبدأت تدندن لي .

ستستغرق الرحلة الكثير من الوقت ، فاخرجت من حقيبتي مذكرات فريد لأقرأ منها بعض السطور .

* * *

قال (راي براد) عن الكتابة : " لقد تعلمت في رحلاتي أني إن سمحت بمرور يوم من غير كتابة سأكبر مرتبكًا ، بعد يومين سأتعرض للارتجاف ، بعد ثلاثة أيام سأكون متشبهًا بالعته ، أربعة أيام و قد أتحول لخنزير يتمرغ في الوحل " ، لذا أنا لا أتوقف عن الكتابة ، لا أريد التحول إلى خنزير ، أو شيء أخر قد يكون عالة على الجميع ، أو فردًا زائدًا تسبب رعايته المتاعب ، أكره تخيل فكرة أني عجوز لا يقوى على الشُرب بدون معين ، أو رجل عاجز بطرف صناعي تكلف العناية به الجهد لكل من حوله .. قد أكون مدركًا أنني أسبب المتاعب حينها و قد أخفف عنهم إن احتفظت بعقلي كامل سليم .. لكن ما يؤرقني بحق هو أن أصل لحالة في التسبب بالمتاعب لا أدرك فيها أنني أسببها حتى لمن حولي ، كالإصابة بمرض (ألزهايمر) ، مثلًا ، أو الخَرَف مع تقدم السن ، أو الإصابة بمتلازمة كمتلازمة (كورساكوف) مثلًا بفقد أو حبسة في الذاكرة تجعلني سجين عقلي .. في كل هذه الحالات جميعًا أُوصى من كل قلبي أن يتم وضعي في دار مسنين و أن تمنعوا عني الزيارة أيضًا ، و أرجو هذا حرفيًا ولا أريد تجاهل رغبتي .. أكره أن أكون كئيبًا و أن أفكر في هذه الأمور و لكن هذا ما يجول في خاطري الآن و أأسف لما أكتب و لكن حينما أموت هذه وصيتي : لا تحتفظوا بِصوري ولا تنشروها ولا تقولوا هذا كان هو ، لتُمحى جميع صوري و تطمر معي في التراب .

حينما أموت غطوا جسمي ووجهي فورًا ولا تجعلوا الكثير يراني ، قوموا بتغطيتي حالًا و استروا وجهي و جسمي و ضعوني في صندوق و اغلقوا عليَّ إلي الأبد .

حينما أموت لا تذكروا اسمي في بيوت الدين و الاحتفالات و لا تقولوا ليته كان هنا بيننا .. حينما أموت اطمروا كل شيء يخصني جدًا معي في التراب حتى الذكريات ، تبرعوا بملابسي و أدواتي و كتبي و جميع اشيائي إلي أُناس غريبة لا تروهم أنتم بأغراضي .

حينما أموت لا تضعوا صوري في الكتب ولا فوق اللوحات ولا بين أغراضكم ، لأموت تمامًا و كأني لم أكن يومًا ، لأموت إلي الأبد و أُمحى من ذاكرتكم و أغراضكم و كأنني لم أُخلق يومًا تحت أي سماء ، و كأنني لم أسِر يومًا فوق أي أرض .

اليوم دخل عليَّ رحيم و أنا أكتب هذا الكلام البغيض و كنت حزينًا جدًا ، حتى أنه رآني أبكي للمرة الأولى و صُدم من حالتي المزرية ، جرى نحوي و احتضنني بشدة و جعلني أبكي في حضنه كالأطفال ، و سألني بتعابير مندهشة " ماذا جرى يا صديقي؟ لم كل هذه الدموع ؟ "

أجلسني بجانبه و هدأني بطريقة ما .. لم أكن أعلم ماذا في صدري حقًا لأفضي به إليه ! كنت أريد أن أشرح له و لكن لا أعرف كيف ، لكن بحديثه لخمس دقائق هدأ روعي و بدأت في الكلام .

تفهم رحيم الصراع بداخلي ، أن المشاعر في نفسي تتضارب و تتخبط ، فأنا لا اعرف ، هناك الكثير ، هناك غيظ يقتلني و يحرك لي كلتا ذراعي معًا ليرتعشا ، بالأمس قد انهلت باللكمات على الحائط حتى كدت أكسر قبضتي .. شيء ما يمسك لي صدري من الداخل و يخنقه و يهزه بعنف مكظوم .. يداي تؤلمانني جدًا ، غضبي يبث الوجع و الرعشة في يدي حتى أنني لا استطيع حمل قلم .

كنت استطيع أن استمر في ضرب الحائط ليشتعل فيا الغضب أكثر حتي أموت محترقًا بلهيبه.

واشعر بشخصي الآخر يستفيق بداخلي ، يأبى الحديث والعتاب والضحك وكل شيء، يريد كرامة و كبرياء لذاته فيأبى لي أن أفضي بمكونات صدري تلك إليك .. وإن كانت الفضفضة نوعًا من أنواع التعري له، فقد تجمدت أطرافه من فرط البرودة و قلة الحيلة .

و أشعر بثالثٍ ضعيف هزيل لا يحتمل هذا كله .. رقيق جدًا كطفل ، يحتاج من يداعبه و يلاطفه و يحثه على عدم البكاء ، و إن بكى يحتاج لمن يجفف له دمعه و يقبّله و يأخذه في حضن طويل عميق و يضيق عليه بذراعيه لمدة يوم كامل ، حتى يشعر بالأمان .. وحتى لا يهلع و يتدفق الحزن و الخوف كالسرطان في دمه .

و اشعر بشخصٍ رابع يخاف هذا كله و لا يريد مواجهته، يريد فقط الاستلقاء على سريره حتى ينتهى كل هذا وحده .

و اشعر بخامسٍ يفضل الحرب و القتال و يريد أن يقوم ليفعل كل ما يجب عليه في حزنه كالرجال .. و اشعر بسادسٍ يفكر في كل شيء دون هدف معين ، رأسه تؤلمه بشدة ، ألم رهيب يكاد يفجر رأسه ، ألمٌ يجعله يبكي جدًا .

و سابعٌ يقف على حافة شرفتي و يستعد للانتحار ، و لكن قدماه ترتعش ، لا تكاد تحمله كثيرًا ليكمل تفكيره .. قد يقفز مضطرًا لعجزه عن الاستمرار في الوقوف !

و ثامنٌ عديم الشعور لا يكاد يدرك ما حوله ، لا يمتلك من المشاعر أكثر من الموجودة في جثة غارقة .

و تاسعٌ يصلي إلي الله و دماؤه تنزل ساخنة حزينة من قلبه و عيناه ، يحدثه في حسرة و صخب و يصرخ و يعوي و يبكي حزينًا و من ثم يجلس في زاوية غرفته و يضم ركبتاه لصدره و يتابع البكاء و يصمت.

و أشعر بعاشرٍ يحتضر و يموت .

* * *

قتلتني كلمات فريد ، وضعت يدًا على قلبي و الأخرى فوق فمي و بكيت بصوت مكتوم لم يخفَى صداه ، و لم يخفى صرير أسناني منه .. حاولت أمي احتواء الموقف ، و بدأت دموعها في النزول بفشلها في ذلك .. لم نكمل بضع دقائق و استعدنا رابطة جأشنا و جفت دموعنا .

و في جَلدٍ و صبر جمعتُ كل شيء بغيض مررت به في حياتي مع كلمات فريد اليائسة .. جمعت كل شتاتي في شيء صغير و خبأته في داخلي عند أعمق نقطة بين ضلوعي .. الجميع يحتاجني قوية الآن ، و آخر ما يحتاجوه هو طفلة لا تستطيع منع دموعها و التحكم بالطاقة السلبية الخارجة منها .

لكن ليس بيدي حيلة على ما بداخلي ، لأن كثيرًا ما تثقل قلوبنا .. يملأ السواد الثقيل صدرك و يضغطك من الداخل وفي كل اتجاه .. يدفع الدم في عروقك تجاه الخارج ليضيق كل طرف فيك ، و تتسارع دقات قلبك ، ليسقط السواد من رأسك و عينيك في ألمٍ قاسٍ بغيض ..

لكن خبأت هذا أيضًا جميعه في داخلي ، لن أسمح بأن تضيع آخر شرارة جنون و عفوية بي .. لن تنطفئ روحي بأي حال ، هكذا وعدت نفسي على النجاة من كل هذا في الوقت المناسب .

مر الوقت ببطء شديد ، و كأنهم كانوا مئة عام لي في تلك الطائرة السخيفة ، لكن في النهاية وصلنا إلى وجهتنا المقصودة بروسيا .

كانت سيارة الاسعاف تنتظرنا بالمطار ، و وسط الكلمات الروسية المُفخَّمة ، و الوجوه البيضاء و الجباه العريضة ، كنا قد وصلنا إلى المشفى المقصود أخيرًا (بسان بطرسبرج) ، كانوا ودودين معنا جدًا ، حريصين على أن يتم كل شيء على أكمل وجه و صورة ، لم تختلف الغرفة كثيرًا عن نظيرتها في مصر ، لكن المُعدات و الأجهزة و حتى الأطباء ، كانوا جميعًا على مستوى أعلى .

اطمئنا على فريد بعدما تأكد الأطباء من أنه سينال العناية الكاملة واللازمة على مدار الساعة ، و لما اتطلع الطبيب المعالج على ملف فريد أكد أن هناك تحسن في الوظائف الفسيولوجية لدى المخ و لكن المسألة برمتها ظلت خطيرة كما هي ، و ما زال فريد في نقطة الخطر ، على أن يظل اعتبار مسألة استيقاظه بالطبع في يد الله فقط ، و أن كل الاحتمالات واردة .

استطعنا بعد ذلك توفير غرفتين بفندق مجاور ، اقترحوا أن تكون واحدة لأبي و رحيم و الأخرى لي و لأمي مع مريم ، لكن بالطبع سأقضى معظم لياليَّ في غرفة فريد بالمشفى ، لذلك صارتا الغرفتان واحدة لأبي و رحيم ، و الأخرى لمريم مع أمي .

مدينة سان بطرسبرج ، بالرغم من كثرة الأنوار و الجمال المنتشر في كل بقاعها إلا أن كل شيء بدا لي قديمًا يكسوه اللون الأبيض و الأسود .. بدأت أُصارح نفسي بأن أخي قد لا يستيقظ مجددًا و إلى الأبد، لا أشعر بالأمور إلا بأنها تتعقد فقط، ولم أفكر إلا بأننا أتينا إلى هذه الرحلة ستة أفراد و سنعود منها خمسة لا أكثر .. فقط لأكون واقعية مر أكثر من شهر على غياب وعي فريد، وقرأت وصيته بالأمس في الطائرة، ففريد ميتٌ الأن و نحن هنا في انتظار معجزة بعثه للحياة مجددًا.. لا استيقاظه من النوم، بل استيقاظه من الموت .

خرجت مع رحيم في هذا اليوم نتفقد بعض الأماكن و المناطق في محيط المشفى .. كانت الورود تبدو لي عقيمة بالرغم من جمال مظهرها ، لم استطع أن أشم رائحة عطرها ، كان البشر لي جميعًا هناك كشخصٍ واحد كرروه في كل شارع عدة مرات إناثًا و ذكورًا .

- فيكي أيه يا نور ؟ انت مش كويسة من ساعة ما كنا في الطيارة .. قوليلي أيه في جواكي ..

- جوايا بيتحرق يا رحيم .

كانت كلماتي القصيرة كافية ليتجدد صمتنا لعشرة دقائق أخرى جففت فيها دموعًا قبل أن تسقط .. بدى لي رحيم مرتبكًا ، و بدى مختلفًا في مظهره ، مُرتب اللحية .. فاحت منه رائحة دخلت أنفي سريعًا عكس تلك الورود ، ربما كان فضولي هو ما سمح لي بشم الرائحة منه ! لا أعلم ..

- عجباني قصة دقنك الجديدة ، و البرفيوم الي حاطه حبيته أوي كمان !

- في الحقيقه يعني .. كل دا لسبب تقريبًا .

- مفهمتش !

- انت مش مستمتعه بالبلد ؟ كل حاجه جميله هنا ، بصي ع البيوت و ع الأنوار في كل حته .. بصي الطرق المتغطيه ورد اللي طالع منها روايح كتير مختلفة .

- مش عايزه أحبطك يا رحيم ، بس أنا عيني رافضه تشوف أي حاجه حتى الأنوار ، و لا الروايح داخله مناخيري كمان .

- بس عينك وصلت لدقني ! و ريحتي متاهتش وهي جيالك كمان !

- ماشي .. أنت ألطف من المدينة المنورة دي، وريحتك أحلى منها، حواسي قبلاك و مش قبلاها هي .

- ماشي و أنا هعتبر دي مجاملة حلوه منك .

- لا أنا مش بجاملك .. أنت مريح فعلًا و ليك ف قلبي مكان مريح ، أنت مش صاحب أخويا بس ، أنت صاحبي أنا كمان و أنا بحبك .

- و أنت تستاهلي من صاحبك أنه يخليكي تستمتعي بمدية سان بطرسبرج أكتر من كدا .. و أنا عارف الطريق الي نمشي فيه كويس أوي .

لم اتفاجأ عندما دخل بي إلى مطعم في المدينة ، بالطبع يعرف أنني ذواقة و أحب الطعام .. لكن لم يكن طبق (البورش) المكون من حساء الشمندر لذيذًا جدًا ، أما فطائر اللحم بالخضار فقد نالت إعجابي ، رائحتها نبهتني بأن طعام روسيا سيختلف ، الصوص بداخلها قد سبحَ في فمي و ذاب معه اكتئابي على ما أظن من فرط الحرارة اللذيذة ، و الخضار البسيط بالداخل كان يعتذر لي عن شدة الحرارة و يلطف لي فمي بعد كل قطعة اضعها فوق لساني ، و كانت نهاية الوجبة بقالب حلوى تليق ببهاء المطعم الضخم ، و تليق بالذكي الجالس أمامي .

لم تنزل عينا رحيم من عليَّ ، كان يراقبني مبتسمًا و نحن نأكل وقلما نزلت عيناه إلى طبقه ، كان مستمتعًا و هو يراني أتذوق بفضول الأطباق الجديدة ، و كان يبتسم بشدة إذا لمح خدودي ترتفع و تتكوَّر حينما

تعجبني القطعة في فمي بشدة، وأنا كنت أبتسم أكثر له في المقابل .. تحدثنا في بعض الأمور وامتعني بحديثه فراقت لي الليلة قليلًا و لم يعد داخلي يؤلمني كالسابق .

خرجنا ، لم ألحظ أن البرتقالي قد كسا أطراف المدينة إلى هذا الحد ، وأن زرقة نهرها (نهر نيفا) داكنة مريحة مساءًا ، وأن الأنوار حوله مرتبة بعناية تخبرني كم أن هذا النهر حكيم داخل بذته المضيئة ، فسميناه أنا ورحيم (الحكيم نيفا) .. كل شيء صار جديدًا فجأة و لم أفهم السبب ولم أشغل بالي بالتفكير كثيرًا ، فاستمرينا في المشي و التأمل و الابتسام لنيفا و للسماء الأنيقة المرصعة بالنجوم الباهتة ، و كنت انظر تجاه رحيم فأرى عينيه تتابعني في ابتسام فأبتسم أنا أيضًا .

عقدت يداي متمسكةً بمعطفي لأكتسب بعض الدفء ، و حينما التفت تجاه رحيم هذه المرة أدارني بيده و بدأ يتكلم معي بكل جدية عن أن الروائح التي تدخل القلوب لا تفارقها ، مرت عشر دقائق من حديثه الذي خطف مني تركيزي ، و جثا على ركبتيه في مشهد مُربك ، و قال لي أنه يحبني و طلبني للزواج !

الحب ! ما هو الحب ؟ ماذا عن تلك الحروف الأربعة في " أحبك يا نور" .. أكان هذا الشيء الذي يجعلني أبتسم كلما نظرت له و رأيته ينظر لي ؟ أم أنه الشيء الذي جعلني أشم رائحته و ألحظ لحيته بينما لا أكاد أنظر النور ولا يفطن أنفي رائحة الورود أمامه ؟ أم أنه الشيء الذي يجعلني

استمع لكلامه كالمنوَّمة مغنطيسيًا و انتشي به كالمدمنين ؟ أم أنه الشيء الذي يجعلني سعيدةً حينما أكون معه حتى لو تملَّك مني الاكتئاب ؟

أو أن الحب هو جميعهم فحسب ؟ .. قد قرأت عنه الكثير و بدى لي معقدًا في الروايات و القصص ، لم استطع يومًا أن أفسر مشاعرهم ! لم استطع أن أدرك كيف لهؤلاء المطربين أن يكونوا عاشقين لدرجة تجعلهم يتغنون بحبهم لهذا الحد المبالغ فيه ! دومًا كان في نظري أنه شيء معقد و لم أشغل بالي به .. لكن إن كان الحب هو ما أشعره تجاه رحيم ، إذًا فهو شيء بسيط جدًا لا داعي لتهويله و تضخيمه ، اعتقد أنني أحببته فحسب.

قضينا باقي الليلة مبتسمين بدون سبب أمام مياه النهر ، ورغم زحام المدينة و الطريق إلا أننا بعدما أدرنا ظهورنا للجميع لم اسمع حينها أي صوت أو ضجيج .. و حينما أمسك يدي و قبلها ، لم اسمع سوى قلبي يطرق جسدي طرقًا ليقفز أمامي مشتعلًا في النهر !

أراني نجم في السماء يلمع بشدة .. كهذا النجم الذي يختلف عن باقي النجوم و يبدو لنا أقرب .. قال لي أن هذا النجم الكبير سيظل يراقبني هو منه طوال الوقت إن غاب عني ، و أن هناك سحر يربطنا في ذلك النجم سيجعله يلمع باستمرار ، سألته و ماذا إن خفت لمعانه و اختفى ؟ .. قال لي أن السحر سينير جميع النجوم عندها .

و أسميته (إيفان جيلين) على اسم النجمة التي غنت لها الحشرة في فيلم الكرتون الذي شاهدته ذات مرة، وظللنا نراقبه حتى ساعة متأخرة من الليل.

أوصلني إلى المشفى لم طلبت منه ذلك و ذهب هو لينام بغرفته بالفندق المجاور .. صعدت لغرفة أخي و قبلته ، صنعت كوبًا كبيرًا من القهوة التي لا تأثر بي إطلاقًا في المساء ، فأنا أشربها كالماء و أنام .

جلست بجانب فريد اتأمل قسمات وجهه على كرسي ذكرني بالمشفى في مصر و حكايات المذكرات ، ففتحت الكتاب بجانبي لأقرا بعضًا من سطوره .

* * *

أما عن شقيقتي ، فهي وديعة للغاية ، وديعة كحمامة تطير في السماء بحثًا عن رقة الهوا فقط ، أكتب لها هذا لأني أكتب أفضل مما أتحدث ، لعلها تقرأ ما بقلبي يومًا ما ، أو لعل كتابتي تكون أسرع مني و تصل إلى القاهرة يومًا ما قبلي .

أصلي لها دومًا أن يكسبها الله الحكمة ، و القدرة على أن تكون قاسية في بعض الوقت إن لزم الأمر .. فليعطيك الله من عنده حكمة ، و قوة احتمال و صبر ، و يهبك نعمة الاقتراب من الكمال ، ولا يدعك كالحمام وديعة فحسب .. ليعطيكِ نعمة الفهم و القسوة حتى على نفسك إن

أخطأت ، نعمة أن تستطيعي دهس قلبك إن حملك على طريق غير صحيح لمجرد أنك تستهوي السير فيه .

ليعطيكِ الله نعمة الثقة الكافية التي تجعلك تُهمشي ذاتك بين الجميع ليظهروا هم بدلًا عنك ، ثقة تجعلك تفعلي ذلك بدون أن تشعري بنقصان ذاتك ، ثقة تمنحك الشجاعة الكافية للمرور بعيدًا في حياتك عن كل شيء بلا قيمة ، ثقة تجعل أقدامك تحفر الأرض أثناء المسير.

ليعطيكِ الله نشوة الانتصار و الكبرياء .. ليعطيكِ نعمة تجعلك تواجهي قسوة الحياة إن أتت تحت أقدامك ، بدلًا من أن تديري ظهرك لها بالرحيل .

ليعطيكِ الله نعمة الاكتفاء و الحب معًا .. الحب الخالي من أي شوائب .. الحب الممتلئ بالثقة و الأمان ، ومحبة قلب بداخلك تجعلك لا تفكري إلا في كم أن جميع البشر جيدون و لطيفون في أعماق أرواحهم ..

ليعطيكِ الله نعمة نقاوة الفرحة التي تنزل من سمائه بدون ميعاد .. التي لا أظن أنك تذوقتِ منها بعد .. فرحة تجعل الحياة و البهجة في كل روحٍ حولك .. ليجبر الله بخاطرك و يجعل الحياة فيكي و فيمن حولك لامعة نقية كينابيع المياه الساخنة.. و يرسل لك من السماء أشخاص يعرفون كيف يكون جبر خاطرك بدفئهم حين يُكسر ، و اسعادك ببهجتهم حين تحزنين .

تذكري دومًا أنه في المكان الذي تضعي قلبك فيه ، فهناك ستجدي كنزك أيضًا .. قد تشقي و يتملكك التعب في وقتٍ ما لكن ثقي في ، طالما وضعتي قلبك في شيء ؛ فهناك سيكون حصاد قلبك كذلك .. في الماضي قد التحقت بكلية الطب ، و من كلامي قد تظنين أني وضعت قلبي في النجاح قبلها ، في أن أحصل على علامات مرتفعة لألتحق بها .. لكن في الحقيقة لقد وضعت قلبي في مشيئة الله لي ، و جعلته يقود دفتي و أوصلني إلى هنا و أنا أفخر بذلك ، فالأن هناك الكثير يشفون على يدي ، و أنا جراحٌ ماهر أنقذ حياة الكثير .. و لو كان وضعني في مكان مختلف لكنت سأفخر بهذا أيضًا و كنت سأفعل ما يرضي الله و روحي .

لقد تعبت كثيرًا في حياتي لكن لم أشعر بقيمتها سوى منذ أسبوع فقط، لأنني منذ أسبوع واحد قد أنهيت جزءًا كبيرًا من حلمي كي أصير كاتبًا، أتممت مسودة روايتي الأولى، ستندهشين حين تعلمي ما أسميتها .. أسميتها (نور) ، على اسمك يا حُلوتي .. و إن وافتني المنية الأن سأكون راضٍ جدًا عن حياتي أكثر من أي وقت مضى ، سأموت بين أوراقٍ خلدت أسمي فيها ..

بمجرد أن تفتحي الكتاب ستشعرين بي أمامك فورًا و كأنني أخاطبك وجهًا لوجه كما تشعرين الأن تمامًا ..

عندما أنهيت هذه الرواية شعرت بها أني لن أموت في يومٍ أبدًا ، لذلك إن كانت روحي عند خالقها الأن فاعلمي أني راضٍ تمامًا عن حياتي ، و راضٍ تمامًا عن مكاني في السماء .

أطلب منكِ أن تضعي قلبك في كل شيء يقودك إليه قلبك ذاته .. ضعي قلبك في الغناء ، صوتك جميل جدًا ، و ستكونين رائعة يومًا ما .. الرسم أيضًا كنتي موهوبةً فيه لفترة ، رسمتني عدة مرات و كان الأمر مذهلًا .

ضعي قلبك في رياضة ترضي جسدك كالباليه مثلًا ، اعتقد أنه سيليق بكِ.. ويومًا ما، ضعي قلبك في أبهى الرجال وأكثرهم حكمة، ليكون لكي جناحه ملجأ من نكبات الزمان، ويكون قلبه لكي عُشًا وتحتمي فيه من غدر الرياح .

ليعطيكِ الله نعمة الأمان و الراحة المطلقة بدون شروط ، أمان و راحة من السماء لا ينتهيا ولا يزولا كالأمان و الراحة القادمين من جنس البشر .. لأن أمان السماء لا ينضب ، و جذوره متسعة لا تيبس .. ليملأ داخلك و يفيض منك على كل من حولك .

ليعطيكِ الله أكبر نعمة من عنده أن تعلمي أن كل شيء جيد يأتي من الأعلى و بتدبير و تخطيط من أجلك أنت .. نعمة الفهم ، أن تفاصيل حياتنا و علاقتنا بجميع البشر ما هي إلى خيوط متداخلة تمتد من خيوط مشاعر علاقتك بالله نفسه .. فكما تحبي الله سيحبك هكذا جميع البشر ، ليعطيكِ الله أنقى أنواع الحب و أرقاها تجاه الجميع ، مشاعر خالية من

كل مشاعر فقد و حنين زائل و احتياج مشوه .. و يملأ داخلك بقوة الحب الطاهرة ، و يجعلك تفيضين بالحكمة على المجتمعين حولك .. و يفيض منك الفرح و السلام و سعة الصدر و الصلاح و الايمان و الأمان و الوداعة و اللطف .

ليُفرّح الله قلبك دومًا يا أختي العزيزة .

* * *

اغلقت الكتاب و نظرت له و عيناي مملوءتان بالحنين ، احتضنت مذكراته بشدة ، جففت بعض الدموع التي وصلت لفمي المبتسم ، ثم قبلته و كلي فخرٌ به و خلدت للنوم .

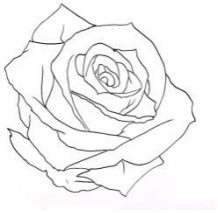

14

لا يوجد في قلب الانسان عاطفة أنقى و أعذب من تلك العاطفة الخفية التي تستفيق على حين غفلة في قلب الصبية ، و تملأ خلايا صدرها بالأنغام السحرية ، و تجعل أيامها شبيهة بأحلام الشعراء .

(جبران خليل جبران)

استيقظت في يوم على يدٍ تهزني برفق بعد ليلة لم أنم فيها جيدًا ، كان يتهيأ لي طوال الليل بعض الكلمات تطاير بالإنجليزية و سمعت صوت أبي بينها ، و نقاش مرتبك بين أبي و أمي أنتهى بجملة : " سأخبرها أنا في الوقت المناسب " .. وظهرت أمي بين رموشي التي بدأت في الانفراج ، قبَّلتها واحتضنتني و جلست بجانبي .

- عملتلك فنجان قهوه .

- يااااه شكرًا يا ماما .. محتجاه أوي دلوقتي .

- مش هتتغيري أبدًا .. من غير ريحة القهوه ع الصبح ممكن تقعدي ساعة تفتكري أنت مين و بتعملي هنا أيه ..

حكيت لأمي كل شيء حدث البارحة ، و أريتها الخاتم في يدي و ضحكت ، وبدا لي أن الأمر راقها ، و أنها تحب رحيم ، و قالت لي ألا اتعجل القرار في ذلك .

- بس إزاي أعرف إن كنت بحبه بجد ولا لا ؟

- دا بسيط.. إتخيلي إنك بتصحي كل يوم تلاقيه جنبك، هتحبي الموضوع؟.. لو هتحبي الموضوع يبقى خير..

أو إتخيلي إنك في المطبخ بتطبخيله ياكل ، مفيش ست مننا هتحب تطبخ لراجل إلا لو كانت بتعشقه ..

لم أفكر في سؤالها حتى .. بالطبع أحب أن استيقظ و عيناي على وجه رحيم ، و أريد أن أطبخ له أيضًا .. سيسعدني ذلك .

ظللت أنا و أمي نتسامر و نتبادل الأحاديث حتى نظرت للأرض ووضعت يداها فوق ركبتيها و أخذت نفسًا عميقًا ، ثم تطلعت فيا رافعة حاجبيها ..

- أم باسم كلمتني الصبح و قالتلي إن باسم كان مرهق بقاله كام يوم و راح للدكتور .. ابقى اتصلي اتطمني عليه ..

اصابني القلق و ارتبكت، و لكن هدوء أمي طمئنني قليلًا و تحدثت له فورًا. كانت نسبة (الصفرا) بجسده مرتفعة حتى أن الاصفرار وصل إلى عينيه ، و بعد اجراء التحاليل ظهر أن لديه نسبة بسيطة من (فيرس A) في دمه ، لكن الطبيب أكد أن هذه النسبة لا تكفي لتصيب عينيه بالاصفرار و سيقوم بالمزيد من الفحوصات قريبًا ليعرف من أين يأتي الخلل .

قد اقلقني عليه للغاية ، و صار همي الأن همَّين ، فصديقي المريض بعيدٌ عني آلاف الكيلومترات ولا يعلمون أي مكروه يصيبه .. حاول أن يقول لي أن الحالة بسيطة و متكررة و لكن أنا الآن أتحسس الخطر في كل من أحب ، وأخشى أن تأتيني ضربةٌ في أيٍ منهم .. فضربتين على الرأس تؤلم .

لا أتخيل الآن حدوث مكروه لباسم ، أنيسي و خليلي ، بهي الروح، خفيف الطلعة ، هذا الوسيم البشوش دائمًا ، كالذي يهاتفه برنامج (مصطفى الآغا) يوميًا .. هذا الشاب اللطيف الحساس كالأطفال تجاه من يحب، الذي لوَّن لي الاسكندرية و لوَّن حياتي بها .. كاتم سري و صديقي الصدوق ليصيبني ألف مكروهٍ يا عزيزي و لا يَمَسُ القدر شعرةً واحدةً منك .

حاولت أن أطرد القلق الذي بدأ يساورني مبكرًا منذ الصباح و أن أُصَفّي ذهني من الأفكار المزعجة ، فقمت بتشغيل فيروز بصوتٍ هادئ يشتت تركيزي في عذوبة صوتها قليلًا ، و تسللت الأنغام إلى قلبي مباشرة كقطرة حبر هبطت في كوب ماء انتشرت فيه بسلاسة و لطف:

بكتب اسمك يا حبيبي على الحور العتيق..
بتكتب اسمي يا حبيبي ع رمل الطريق..
وبكرا بتشتي الدني ع القصص لمجرحه
يبقى اسمك يا حبيبي و اسمي بينمحي

ظلت الألحان تطاير من حولي و تملأ الغرفة بالطاقة الجيدة و الابتسام ، بقت يدي في شعر فريد تداعبه و كلمات فيروز تدخل من اذني لقلبي ، ومن قلبي لفمي ، و من فمي لقلب فريد مباشرة ، حتى هُيِّأ لي أنه شاركني فيروز و الابتسام ، فاتسعت ابتسامتي أكثر ، و ارتفع صوت فيروز من قلبي أكثر ، و بقيت على حالتي تلك إلى أن انتهت الأغنية كاملةً .
تثار سعادتي المُفاجئة أثناء انشغال بال الكثير حولي وقت الضيق والمصائب ، يتسآلون كيف ينقلب مزاجي فجأة من حزن و سوء و ارتباك ، إلى مجرد سعادة و هدوء ! .. يظنون أن تركيزي ضعيف ، لا استطيع تذكر

المشكلة التي فوق رأسي فحسب ، أو أطردها مثلا ، لكنهم لا يعلمون أن هذا فقط النعيم بداخلي ..

قد قال لي أبي - حفظه الله - مرة و أنا صغيرة ، أن الله وضعنا أولًا في حديقة، وعندما فقدنا النعيم كان يجب علينا البحث عنه و اعادة اختراعه مرة أُخرى، و لكن البعض منا فقط لديه الموهبة لفعل ذلك، حينها أيقنت أن نعيمي سيكون دومًا في داخلي، ولما كان داخلي صُلبًا، صارت النيران حولي تؤذيني فقط، لكن النعيم بداخلي كان بخير طوال الوقت .

اتذكر أني ضحكت بشدة عندما علمت أن أبي قد سمع تلك الكلمات من فيلم على قناة أجنبية ، لكن الأمر بنى في ذاتي جزءًا كبيرًا .

و كم كان غريبًا أيضًا لأبي و أمي و باسم كوني استمتع بوقتي في الاسكندرية كثيرًا بمفردي وسط لوحاتي و غنائي و رقصي و فيروزي .. وسط القهوة و الحليب و المطاعم و شاطئ البحر ، كنت أقضى معظم الوقت وحيدةً سعيدةً حتى في انشغال باسم المستمر عني ، قال لي ذات مرة أني مثل ذلك الممثل المشهور الذي يجسد شخصية (مستر بين) الذي استمتع بحلقات المسلسل جميعها و هو تقريبًا وحيد.

الحقيقة أني فقط استمتع بوقتي ، استيقظ ذات صباح و آكل من مطعم ما وجبتي المفضلة ، استمتع بها دون تصويرها أو أن أُعلم أحد بها .. يعجبني سطر من كتاب أحببته و لا اشاركه مع أحد المتابعين لي ، أقف

أمام بيت شعر رائع ولا أكتبه لأهديه .. عندما يسكن فيَّا خير جميل أبقيه بداخلي ، و كأن تنفذ مني بطارية هاتفي ولا يهمني أن بقى مُغلقًا لساعات ، فالوحدة ليست بهذا السوء في نظري دائمًا .

نظرت في فنجاني فكان ثلثه ممتلئ بالقهوة تقريبًا و لكن قد بَرُدَت ، أحب القهوة باردة أيضًا ، فقدانها حرارتها لا يفسدها عليّ ، تظل رائحتها كالطاقة في أنفي و عقلي و مذاقها يُنعش جسدي بأكمله ، لذا تذوقتها و كانت لذيذة كما ظننت و وضعتها أسفل أنف فريد أيضًا ، لابد أنه اشتاق لفنجان من القهوة .. تمتع برائحتها كما تشاء يا أخي العزيز .. فعلت هذا بكل حب و رضى ، لأني كنت متأكدة من استمتاعه بذلك .

نزلت إلى الشارع الواسع جدًا بالأسفل بحثًا عن مكان يقدم لي كوب حليب جيد ، و قد نسيت حقًا منذ استيقاظي أننا كنا في روسيا لا مِصر على الرغم من اننا أكملنا أكثر من شهر هنا منذ يومنا الأول ، لم أنتبه في أي بلدٍ أنا إلا عندما قابلت ممرضة فريد ناصعة البياض عند خروجي من الغرفة ، بياضٌ يقول أنك لست في مصر ، فوضعت يدي في معطفي وخرجت.. تملكتني الحيرة لدقيقة أمام الحكيم (نيفا) حتى شعرت بيدٍ ثقيلة فوق كتفي تضغطه في رفق، كان رحيم .

- كنت في الطريق جايلك عند فريد ، بس لمحت في سكتي جاكتك الأسود من بعيد ، و متوهتش عن شعرك المِحمِر في الشمس .. يومك ابتدى إزاي؟

عند سؤاله عن بداية يومي أنار اسم باسم في عقلي فورًا ، لم يكن صباحي إلا خبر مرض باسم .. اخبرته عن حاله كما وصف لي باسم بالتفصيل ، وعن حيرة الطبيب في الفيروس الذي يسبب له المشكلة فعلًا ، و أن باسم سيقوم بتحاليل وفحوصات أُخرى مساءًا في معمل بالقاهرة لم يشغلني اسمه ولا اذكره، ولفت انتباهي تركيز رحيم و شروده المتكرران كما لو كأنه يُسجل كلماتي بعقله و قال: "اسأليه إن كان قد قام بتحليل فيروس (Cyto-megalo) أم لا، اخبرتيني مرة أنه كان يمتلك كلبًا لفترة ، قد يكون أصابه بهذا الفيروس ، و بعدها أطلبي منه أن يقفز عدة مرات في الهواء حتى يُرهق نفسه ، و يأخذ عينة من البول فور انتهائه و يطلب من الطبيب تحليلها ، لأنه إن كان هناك (بلهارسيا) عالقة في المثانة ستنزل بالقفز إلى مجرى البول ، قد يكون أحد هذين السببين هما وراء اصفرار عينيه" .

ظننت للحظة أنني أدرس في مجال مختلف ! كان يتكلم كالمنجمين وادهشتني طريقته ! كما استفزتني ثقته أيضًا ! أرسلت رسالة لباسم بكل ما قاله رحيم و كُلي فضول أن أعرف إن كان رحيم ماهرًا هكذا أكثر من طبيب باسم بالقاهرة عندنا ، و كُلي أمل أن يكون كلامه صوابًا و يذهب هَم باسم عن رأسي .

لكننا اخرجنا كل هذا من رأسنا للحظة و ذهبنا للتمشي قليلًا ، كان الجو مشجعًا للمشي ، الهواء بارد بشكل لطيف ، يحذرنا من شدة السقيع مساءًا ، و اشعة الشمس رقيقة تداعب لك خدَّيك في رفق كاعتذار عن

البرودة في الهواء .. كان المكان ساحر خصوصًا في وجود الصحبة الجيدة و كانت مكتملة في أنيسي الجديد، حينها اقترح رحيم أن نتناول وجبة الغداء مباشرة بعد القليل من المشي، فسِرنا بمحاذاة النهر نتجاذب أطراف الحديث، تناقشنا حول كلمات محمد العوضي في كتابه لم قال أنه من الصعب جدًا أن نبحث عن (الكمال) في أنفسنا لأننا بشر و الخطأ وارد، لكن من الممكن أن نصل إلى (المثالية) في تعاملاتنا .. فإذا كنت مثلًا ممن يدخنون فعليك أن تتجنب أن تشرب سيجارة أمام من لا يدخن ، ليس فقط كي لا تضر صحته و لكن أيضا كي لا توجه قناعاته الفكرية في أن يعتاد رؤية شيء بعينه على أنه طبيعي فتذهب روحه إليه و يصير مثلك، اجعل الشر من نفسك في نفسك و لنفسك، و انثر الخير للجميع..

لا تكذب ، و لا تخادع ، و لا تنافق ، و لا تخذل ، و لا تُضل ..

فيكفيك حسابك عن نفسك ، ولا تضف إليه أوزار غيرك ..

كان مقتنعًا جدًا بوجهة نظر الكاتب ، لكنني لم اقتنع ، لا أريد أن أكون أنانية و لكن حرية تصرفي مباحة ما دامت في حدود الأخلاق و لن تؤذي الآخرين .

جلسنا على طاولة صغيرة في مكان هادئ كان ممتلئًا بالزبائن ، و وسط الموسيقى و ألحان الكمان وضع النادل أمامنا كوبين صغيرين جدًا من عصير الرمان و قطعتي كعك صغيرتين ، و كان غرض هذا الترحيب فتح الشهية على الأغلب بأسلوب مختلف ، و هو ما كان فعلًا ، تضورنا جوعًا و

استغربنا الأمر ، مفعولهما بطريقة عجيبة كان أفضل من (الشوربة) قبل الطعام .. طلبنا قطعتين من اللحم ، الكبيرة له و الصغيرة لي و الصوص الحار لكلينا .. و استمرينا في تبادل الحديث ، تذكرت حينها كلمات قرأتها في دفتر فريد لم أفهم منها أي شيء ، حكي عن بحار يقول أنه اوقف قاربه عند نهاية كهف طويل في المحيط و نظر الي البقعة الظاهرة من السماء خلفه و صمت ، و طال الصمت جدًا ، طال الي حد بعيد بحق، و ظلت السماء مفتوحة كما لو أنها لا تغلق أبدًا ، و بقيت ظاهرة أمامه و هو صامت في ضيق أسفلها .

حكي أنه قد غاص قلبه جدًا، بكل ما لا يحتمل ولا يطيق ، قد امتلأ صدره حتى فاض لأعلي في راسه و سقط السواد من عينيه ساخنًا، قد امتلأ هذا البحار جدًا بما هو أكثر و أثقل من المحيط أسفله.. كانت السماء مفتوحة أمامه ولكنه لا يطيق الصعود، وكانت جميلة خليقة بالإعجاب ولكن نظره لم يستطع أن يتمتع بها .. كانت المياه تحته، ولكنه لا يستطيع أن يرتشف منها رشفة ترطب له ريقه .. لا ينقذه إلا عبور المحيط، ولا الوقت يكفي ولا المياه تروي، ولا الطريق يهدي ولا صدره يسع ما فيه.

لم يفهم رحيم، لكنني فعلت، شعرت بقلمه و هو يكتب فحسب، بالتأكيد كان فريد البحار الشاعر بالضيق، وأنا أبادله ذات الضيق الأن واشفق على كلينا .. و كانت ذكرى بسيطة كفيلة بتسريب الضيق إلى قلبي ..

انتهينا من طعامنا و استمرينا في التجول بالمدينة حتى المساء ، فترة الظهيرة تلك و حتى وقت النوم لا تفارق مريم فيها فريد ، فقط تجلس بجانبه و تتأمل في عينيه و جسده حتى يغلبها التعب في المساء و يعود بها أبي إلى الفندق ، و أحيانًا ترافقهم أمي و أحيانًا تبيت .

حاولت الاتصال بباسم لفترة طويلة ولكن شبكة الاتصال لم تسعفني نهائيًا ، فاقترح رحيم علي أن استخدم أحد مواقع التواصل الاجتماعي وستكون وسيلة أسهل ففعلت، ولما رن هاتف رحيم أجاب هو الأخر.. ظلت عيناي تراقبه وأنا احاول الاتصال بباسم، لاحظت احتداد ملامح وجهه المتعكر فجأة كما لاحظت أنه كان يجيب بالإنجليزية بضيق خالطته الريبة و التوتر ، لكن لهاني عن الأمر باسم لم أجاب ، و بدون مقدمات منه علمت أن نتائج التحاليل كانت بالإيجاب و أن رحيم الفذ كان على حق ! حتى أن الطبيب الشاب طلب من باسم إيصال سلامه و شكره لرحيم ، و سيتلقى باسم كورس العلاج لفترة قصيرة و سيتحسن ، بعدها سيمر بفترة نقاهة ليزول المرض تمامًا و هذا كان أمرًا ضروريًا أكد عليه الطبيب .

و كان هذا جيدًا بالنسبة لي و لكن لم يكن كافي ، هذا باسم صديقي وسيكون في أفضل حالٍ مجددًا و لكن ماذا عن الراقد الآخر ، ماذا عن فريد ؟

تسرب القلق إلى صدري و انتشر ، شعرت بوغزة باغتت قلبي و أسفل رقبتي أيضًا .. شعرت بالرعب و عدم الرغبة في أن ألتفت إلى رحيم و لكنني فعلت .. إلتفت إليه بعينين ثَقُلَتَا فجأة وسألته بكل جدية و حزم ..

- هل سيعيش أخي أم لا ؟ .. لأنني بدأت أمل الأمر برمته و أريد أن أعود إلى مصر اليوم ، و ليس الغد .

- ماذا حدث يا نور ؟ من أين أتت هذه العاصفة فجأة ؟

- أريد فقط أن أعرف إن كان من الواجب علي أن أترحَّم على أخي الأن أم لا ، قد يكون ميتًا فحسب بدون عقل و لكن جسده يعمل فقط و يتعذب دون داعي ، أسأل فقط إن كان من الحكمة الأن أن نجعله يرقد في سلام ربه فحسب ، ربما هو يريد ذلك ، ربما تعلُقنا به لهذا الحد ليس إلا عذابًا يزيد فوق عذابه عذاب ، فإن كان ميتًا فاتركوا الفتى المسكين ليرتاح في التراب ، أليس إكرام الميت دفنه ؟

صمت رحيم وسط دموعي لوهلة ، لم يكن منه إلا أنه مرر يده فوق وجنتيَّ ليمسح دموعي في أسى على حالي .

- نور أنت تُصعبين الوضع علي الآن .

- أي وضع ؟ أتظنني غبية ؟ لقد سمعت أبواي يتحدثان مع طبيب في الصباح ، لم أبيِّن ما قالا تمامًا ، لكن لغة جسد الجميع كانت تعبر عن التوتر و الارتباك و الشعور بالشفقة ، فعلمت أن التوتر سيكون من نصيب أخي الميت ، و أن الشفقة كانت من نصيب أخته المسكينة التي لن

تتقبل موته .. و أنت الأن احتدت ملامحك و أنت تتحدث في الهاتف ، أكانوا ينقلون لك خبر وفاة أخي ؟ .. أجبني فورًا ما هو الوضع الذي أصعبه عليك يا رحيم ؟

وصل صراخي في هذا الوقت آخر المدينة ، و ملأ هياج صدري جميع الأنهار في روسيا ، و كان رحيم أمامي متجمد معقود اللسان أمام دموعي التي انفجرت في لحظة و وجهي المحتقن الشديد الاحمرار.

- كانوا يخبروني أنهم سوف يرفعوا عنه الأجهزة صباح بعد غد ، جسده توقف عن التعافي و الاستجابة .

و مرت بضع ثوانٍ ارتعشت فيهم جميع مفاصلي رعشة خفيفة ، سلطت عينيَّ تجاه اقدامي لأراهما غير متوازيين و كأنني اتأكد انهما لا زالا في مكانهما ، لفح وجنتي كف هواء ساخن كرمل الصحراء لفحة ارتجف لها ما بقى من جسدي دون ارتجاف و دمعت احدى عينيَّ دون الأخرى و ارتخت معها احدى ركبتاي لتنذر عن انهيار قريب قد آن آنه على ما يبدو.

لم اكمل ثانية أخرى حتى سقطت على ركبتيَّ أرضًا والتقطني رحيم.

افقت في غرفة فريد و كانوا حولي جميعًا إلا مريم ، يحدقون بي و القلق يقفز من عيونهم حتى أرعبني .

- أين فريد ؟ هل هو بخير ؟

ساعة كاملة من الذعر و الهلع افقدتني طاقتي بشكل تام ، لم أكن أقوى على حمل كوب ماء فارغ في يدي ، و إلى أن اطمأنَ الجميع علي ، اقنعتهم بأن يتركوني هذه الليلة منفردة في غرفة أخي .

وحيدة في أوسع بلاد العالم ، و تضيق بي الدنيا كأصغر بقعة على الأرض .. أنفاسي تتقطع و قلبي يضطرب ، حجرٌ قاسي محبحب يحتك به و يفتته .. الكثير من الوغز في صدري و في قلبي ، داخلي يحترق و يأكلني بصمت مخيف ، مخيف جدًا يجعلني ارتجف رعبًا و أحوّل عينيَّ في أرجاء الغرفة مرتين في الثانية الواحدة .. أشعر بشبح يتجول حولنا ، يراقبنا بعينين ضيقتين و يقلب فينا النظر .. أشعر بأمصالٍ حادة تمتد أسفل رقبتي و رقبة فريد و تستعد لتجذب كلا روحينا على طرف سكين صدئ .. اشعر بخيط رفيع تمكن من روحي و التف داخلها ليجذبني لأعلى شيئًا فشيئًا ، أشعر الوعي و الإدراك ينسلان من بين أصابعي كاللبن المسكوب ..

" ألن تستيقظ حقًا ؟ "

قلتها و انفجرت في بكاء حاولت كتمه قدر المستطاع ، ظللت أأنُ و أعض على أسناني طوال الفجر و أترجاه في امتعاض و سخط .

" أنا أقول لك أن تفتح عينيك الآن !! أفقدت سمعك أيها الأصم !!؟ "

أصرخ ثم .. استمر في المزيد من الصراخ .. حتى خارت قواي تمامًا .. أصل إلى الصفر الآن و أسقط بجانب السرير على الأرض .. رؤيتي مشوشة على أن تتأكد من مكان تواجدي بالضبط .. مرت دقيقتي التالية .. ابدأ في رفع

يداي من فوق الأرض لأتفحصهما كمن يتأكد من وجوده ! ماذا يجري ؟ لما عيني ساخنة ولا أشعر بقدماي ؟ لما تميل رأسي طوعًا عني للأمام ولليسار؟ ربما استيقظ الأن ؟ أكنت أحلم فقط !

لا ، اعتقد أنني افقد الوعى ، أشعر بإدراكي ينسل رويدًا رويدًا خارجي ، أشعر أنني لا استطيع تحريك مقلتاي يمينًا و يسارًا ، أشعر بندوبٍ و شظايا تملأ جسدي بدون سبب ، أشعر بأسلاكٍ شائكة كانت تقيد لي ظهري حتى أدمته في خطوط توازت و تعامدت ، يفقدني الوقت الاحساس بها مؤقتًا .. أشعر بشرخ عميق جدًا مس روحي و تسلل حتى نزل مُرًا من عيناي ، مرٌ ساخنٌ و يؤلم أينما يمر من عيناي و جروح ظهري .. أشعر بالشبح ذو الأعين الضيقة يحوم حولي مجددًا ، يصوب مصله الحاد تحت عنق أخي فقط و يتجاهلني ، يخيم هنا .. يخيم مُنتظرًا ليلتقط روح أخي المسكين ، لا .. لن اسمح له !

بدأتُ في الغناء بصوت يخرج من جثة لِمَا تخلله من ضعف و دموع و مرارة، لعل ألحاني في اليوم الأخير تنقذه ، لعلها ترفع هذا المصل الخبيث من تحت عنقه .. هناك خيالات و ظلال وخطوط سوداء تذهب حول فريد وتختفي تجعلني أُثبت عيناي نحوه .. استجمع تركيزي قدر المستطاع لأرصد كل ما في الغرفة ، نحن لسنا وحدنا ! لاحظت حركة خفيفة فاعتقدت أنه الشبح ، المشبك في أًصبع أخي اهتز لثانية ثم هدأ ، هواءٌ لا أعلم مصدره جعل خصلات شعره تميل و تعود سريعة كما لم تتحرك ،

انظر إلى جفنه .. جفنه ارتعش كنائم هبطت على جبينه ذبابة ! جفونه ترتعش بإرهاق شديد من جديد و يرتفعان ببطء ! و عينان زرقاوان يظهران لبضع ثوانٍ ! ينيرا ظلام الغرفة ثم يعودان كما كانا نِيام!

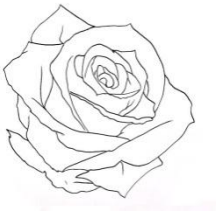

15

كن رجلًا ، تقوَّى .. لأن الأشياء السيئة ببساطةٍ تحدث ، لكن نعم ، الأقوياء فقط من يجمعون أنفسهم و يتابعون الطريق

(جورج إميل)

- أنت ! أنت ؟ أنت فتحت عينك دلوقتي ؟

قالتها و الجملة تتلعثم في فمها و قد تخبطت الحروف و اختلطت بريق حَلقها الذي فشلت في ابتلاعه ! .. كانت تتخبط في كل حركة و لا تقوى على اتزان جسدها الهزيل ..

- فريد يا حبيبي أنت فتحت عينيك بجد ؟

ساد الصمت ، ثم الصمت ، ثم المزيد من الصمت القاسي ! .. تَلَفَت أعصابها تمامًا ، هل كان يُهيأُ لها أن زرقة عيناي لاحت أمامها الأن ! .. أشفقت لما دبت فيها الطاقة كمن هبطت فوق رأسه صاعقة من السماء أشعلت له جسده ! .. اشعر بدرجة حرارتها و أرى جحوظ عيناها ، اشعر بكلِ الأسى الذي تعانيه .. عزيزتي قد أفسدت ملابسها من فرط العرق ، تمسح وجهها و تدعك عيناها باستمرار و بشكل متكرر .. تحدق في عيناي و في جميع أطرافي ملتمسة أن تشم رائحة الحياة بي ، لكن أنا ساكنٌ يا عزيزتي ! أنا لم أتحرك ، ولا يوجد شبح يوجه سلاحه تجاهي .. لكنك لم تُجنِّي لم يكن خيالًا ، لقد ناديتك بالفعل يا حلوتي ، ناديتك في قلبك .. ماذا تقولين ؟ لا لن تموتي بسكتة قلبية الأن أنا أُقسم ! و لن يجن جنونك.

مرت عدة ساعات و أقبل النهار و سينتهى قريبًا بدخول مريم و والداي ، و هي تنتظر في تلهف حركتي القادمة .. طال الانتظار عليها جدًا و انهكها التفكير و العويل ..

بدأت في البكاء مجددًا ، جثيت على ركبتيها و غطت وجهها بيديها و بدأت تبكي و تأنُّ ، تجزُّ على أسنانها بقوة حتى أرتفع صوتها ، حالتها مزرية ، ملابسها غير مرتبة و شعر رأس المسكينة كالمستيقظة من حادث سير ، عيناها متورمتان من فرط البكاء ، حتى أنني لا أعلم كيف وصلت بعض خصل شعر رأسها إلى الأرض آخر الغرفة هناك .!

* * *

دخل والداي مع الطبيب و الكثير من الممرضين ليجدوني ملقاة و منهارة على الأرض ، استمريت في الصراخ أنني قد رأيته يفتح عينيه و بوادر الحياة ظهرت في أطرافه ..

" و الله كان بيكلمني ! و الله كان قاعد بيكلمني أنا سمعته بودني و بيقولي كفايا عياط و أنه كويس ! و الله قالي أن مفيش شبح في الاوضه هنا عايز يقتله ! بتعملوا ايه !!!! "

ولكن .. و لكن بلا فائدة .. دخل رحيم ، يحملني من على الأرض و أنا أنتفض في يده كسمكة خارجة من المحيط ، قَّيد يدي بيداه و ثبتهما في السرير حتى شعرت وغزةً في فخذي من غريب ، يده قاسية كالشيطان .. غاب مع وغزته نصف وعيي .. كمبنى مشتعل ألقوه بناره في ماء البحر فلم يخمد ..

صراخ أمي.. مريم تدخل مهرولة وتسقط على وجهها كمجنون ثمل يتلعثم الكلام في فمه مع الصراخ.. أبي يأنُ و هو يحاول حمل أمي من فوق الأرض

عيناه تعتصران و تنزف الدموع .. تعتصر و تنزف ، كقلبه تمامًا.. الطبيب يصرخ في الجميع لإنهاء الأمر سريعًا .. الشياطين بالزي الأبيض ينزعون الأجهزة من أخي في عنف متعمد و يحملونه في لهوجة و عدم حرص كأنه دمية لا تتألم .. رأس أخي متدلٍ كقتيل حرب سيكرمونه سريعًا الإكرام الأخير.. تهت الأصوات ، أتحامل على أقدامي لترفعني لعلي أنجده من بين أيديهم الباردة .. تهتز الرؤية أمامي و ترتعش الأرض لتخونني .. تنزلق قدمي تحتي فاسقط سقطة مدوية و اشعر الدماء الدافئة تبلل وجهي ، و تعيق الهواء من فمي و تلون شفاهي .. و الوعي ينسل ، من بين جفوني رويدًا رويدًا و يختفى في ظلمة فوق البلاط البارد ..

* * *

..the only irreversible thing in the world is the (DEATH)..

الشيء الوحيد الغير قابل للانعكاس هو (الموت) ..

.. لم افهم العبارة ، و لم أُدقق بها و رفضت التفكير فيها .. منذ يومين فقط رنت في أُذني و رفضت ادخالها .. قالها الدكتور في تسجيل المحاضرة و كررها مرارًا و لم افهم ، أو رفضت أن أفهم ..

كيف لا يمكن عكسه ؟ كيف لا يسير إلا في اتجاه واحد فقط ؟ و إلى ما يؤدي ؟ و أين نهايته ؟

هل هو شيء لا نتحدث عنه كثيرًا لأننا لا نعيشه ؟ أ لأنه شيء على الجهة المقابلة التي نسميها (جهة مقابلة) لأننا لا نعبرها أحياءً لنرى ؟ .. كيف لم يصوره أحد من قبل بشكل كاف ؟ هذا محير ! ..

أ كان هو فقط الظلام الكامل ؟ أهو العدم ؟ شيء لا تتخلله يدانا ؟ أهل هو موجود يبتلعنا ؟ أم اننا أصلًا غير موجودين بصورة كافية فلهذا نختفي ؟ .. فقط نختفي .. في لحظة ، فقط لحظة ينقلب فيها كل شيء يمكن عكسه إلى فقط .... موت ..... شيء لا يمكن عكسه شيء كلا شيء irreversible !!! Really !!

تردد في أذني الآخر (هيث ليدجر) و هو يقول .. هؤلاء المتحضرين سيأكلون بعضهم عند الشعور بالخطر .. تبًا ماذا كان يعني بالخطر ؟ أكان يعني الموت ؟ .. بالتأكيد كان يعنيه .. ألهذا السبب يخشونه ؟ يفقدون حضارتهم ليتجنبوه ؟ .. هذه قمة الفوضى !

.. يا الله قلبي يحترق بشدة ! ألفظ النار من جوفي و يعتصر قلبي حتى أصغر شراييني ! اتألم ، اتألم ، اتألم يا الله و لا أفهم ! لا زلت أفكر ولا أفهم و أستحق التبرير ، استحق أن اسمع سببًا يرضيني ، أو أي شيء يبرد النار داخلي و لو قليلًا .. ماذا يعني كل هذا بحق سمائك و الأرض موطئ قدميك ؟ ماذا يكون هذا الله ؟ .. أي فوضى ! .. أجبني الأن من فضلك ..

بالأمس رأيت قمة الفوضى في أجلى معانيها .. الفوضى الصارخة الشديدة كجرس إنذار بنغمة واحدة يشتعل ولا يذهب إلا بقدرتك على السمع

ليتركك أصم الأذنين ، يجعلك تبتغي قطع أذنيك و حرقها بالنار!.. صراخ (غير قابل للانعكاس) كالموت كان يا الله .. يهدأ علانية و يستمر بداخلي كشبح لا استطيع أن أعرف ما هو .. أجهله فأقول أنه مجرد (شبح) ..

رأيت البدل و الساعات الرولكس و السيارات الفخمة و اصحابها يرتمون على الأرض و بينهم أبي يا الله ، يصرخون و يلطمون الوجوه في فوضة المتحضرين تلك .. يصرخون بشدة .. رجال في شدة الاحترام و الوقار يندبون ، يمزقون ملابسهم في فزع و يولولون كطفل يتعذب ، أ حزانة هم ؟ أم يصرخون خوفًا من الموت الذي يطول الشباب كأخي ؟ أو يندبون توقيرًا و إجلالًا للشبح الذي لا يهزم ؟ هذا ضيق العينين كالموت ! أو أنها مزحة فقط ! .. مزحة سيئة ولكنها أضحكتني ..

يشقون ملابسهم الباهظة و يرتمون حول جثة شاب لم يتجاوز الثلاثين .. رقيقٌ كطفل .. طفل يشبهني بشدة .. طفل هو أخي يا الله ! ..

فوضى فوضى فوضى .. صراخ يتبعه الصراخ .. صراخٌ تذهب معه كل المعاني و القيم و الشهادات و كل شيء (reversible !!) في العالم .. تذهب معه الأخلاق و الرغبات و نظافة الجسد و طهارة الروح و العطور الرخيصة و أفلامي المفضلة و النكات المضحكة و الحياة ... تذهب معه حتى المعجزات .. لا يبقى بين العالمين سوى الإيمان .. ولا خيار آخر .. الإيمان فقط .. الإيمان المتحضر..

ليتك رأيت الرعب في عيون الجالسين على المقهى عندما وقفوا بدون سبب لموكبك المار و صندوقك الطائر .. لا أعلم يا فريد كم حاولت جاهدًا ألا تصل لتلك اللحظة البغيضة التي وصل فيها الأدرنالين حده الاقصى وبث الزرقة في شفاك، وجعلك لا تستجيب لكل هذه اللطمات والصرخات و القُبل على قدمك من أمي ! .. جعلك لا ترد قبلتي على خدك البارد، ولا تعاود احتضناني و انا ملقاة علي جسدك الهامد المرتخي يا فريد ..

لا أعلم كيف جاهدت حتى لا تصل بنا إلى هنا لهذه النقطة البغيضة في حياتنا ، و بي ..لأكتب هذا الكلام الثقيل على قلبي بسببك .. و لكن حتمًا جهادك ألا تذهب ، و صراخك الصامت قبل أن تفارق الحياة ، كانوا جديرين بإكسابك حق الصمت الأن يا أخي ، حقك في أن لا تقرأ كلماتي أو تسمعني و أنا ألقيها الأن فوق قبرك .. حقك في ألا تراني لا أرى حالي إلا قتيلةً مثلك .. قتيلةً جفت دموعها ولا تستطيع البكاء ولا تعرف السبب و يُقهرها هذا الأمر ، لا تعرف كيف تتحدث ولا كيف تنهى ما بدأته عندما بدأت تكتب لك ..

جعلتني أرفض ماهية الشبح و أرفض مقابلته ، أرفض أن أبكي و أحزن من قلبي في صمت مقيت ، أُنكر كل شيء سواك أمامي تضحك بصوت متقطع ، تسمعني أخر مغامراتك و تخبرني عن آخر ما كتبت .. و أنت ترفع لقمة من الطعام أمامي و تضعها في فمك و تستمر في الضحك و تهرب مني كي لا ألحقك .. و أنت تخبرني كم أن أحلامك ستذهب بك بعيدًا

للأمام و نحن ساهرون في غرفتك للصباح .. و نحن نضع خطتنا من أجلي كي أدرس جيدًا لأصل لكلية الطب، بينما نستمتع فجرًا بغسل سيارة (بابا)، عندما تهيني أمام الجميع في جنون، وعندما رفضت ان تصافحني في مرة.. وعندما عدنا بعدها نتحدث و نضحك كما لو لم يكن شيء ..

.. ككل لحظة مرت معك يا أخي هكذا ستبقى بداخلي .. كلحنٍ هادئ مر بأذني و طال مروره ، و كطعامك المفضل في فمي ، و كصخب التصفيق بعد هدف احرزه فريقك المفضل .. أما هذا (الشبح) الذي عبر فلا اعرفه ، لا اذكره .. انت فقط هنا في قلبي .. اشعر بك ترافقني في كل مكان اذهب له ولا افصح بذلك ، و لم أخبرهم عن محادثتك لي في المشفى مجددًا .. لا أريد أن يعلموا أني أأتي كل شهر إلى هنا لأتحدث معك، سيقولون أني مجنونة أن علموا أنني أحكي لك مأساة ذلك اليوم هنا كل مرة ، أو لو أخبرتهم أنك تسمعني و تجيبني دومًا ، يا الله ! أتتخيل ؟

أحببت كل من سُمى على اسمك ، و رأيتك في كل من ولدوا في شهورك وأيامك .. أتعلم يا أخي ؟ لمسة الألم الخفيفة تلك لمن يقرأ قصتك ستعطيني الاحساس بالرضا أكثر مما كان إن حدثت لك معجزة و أفقت في النهاية .. لمسة الألم تلك ستعطيني الشعور بالرضا من أجلهم هم كبشرٍ يجب عليهم الاستعداد لنهاية كهذه للأسف .. تجعلني أشعر بالعار إن انتظر الناس معجزتك و تحققت لك في النهاية .. لأنه يبدو أحيانًا أن بعض المعجزات لا يجب أن تحدث .... كنت أظنك رحلت و خلفت وعدك لي، و

لكنك لم تخلف .. وكنت أظنك لم تشم السمك و الشاي و القهوة والحليب، ولكنك شممت.. كنت أظنك لم ترى قميص الأهلى الذي احضرته لك ، و أنك لم تفتح الجواب و تقرأه .. ولكنك سمعتني وأنا أقراه بجانبك قبل قبلتي الطويلة على خدك تلك الليلة.. بحق الأيام التي كنت أحفظ فيها دروسي وراء لسانك.. وبهجتي و طمأنينتي بكوب الحليب من يدك يا فريد.. وبحق حروف آيات الله في كتابه و أيامه، ستظل هنا في قلبي يا اخي.. وأنا أحبك..

انتهيت من خطابي الشهري له و رحلت .. مرت سنتان و نصف الأن ، يجب أن ألحق برحيم و باسم ، لابد أنهم ينتظراني في مطعمي الجديد بالاسكندرية الذي افتتحته مؤخرًا أنا و باسم ؛ لأفي بوعدي عندما اقسمت تلك الليلة مع باسم قبل سفري لروسيا أنني سأفتح مطعم يقدم السعادة للجميع ، و قد حررت دينَ السعادة تلك الليلة من رقبتي بهذا المطعم .. رتبنا فيه ليلة للاحتفال بعيد زواج أبي و أمي .. هما لا يعرفان و لابد أن أصل مبكرًا لأخذهما إلى هناك حيث رتبنا المفاجئة ..

* * *

سعادتنا كانت غامرة في تلك الليلة ، الكثير من البهجة على وجوه الجميع كعاداتنا سابقًا منذ حداثتي .. و بعد أن انتهى الصخب و الطعام جلسنا كعائلة واحدة ، و العائلة لا تسعد إلا باكتمالها كما تعلم .. ذكرك احدنا

على أنك بيننا فهربت إحدى دموع أمي و هي تدعي لك بالرحمة و تبتسم وسط ابتسامنا جميعًا ..

- بس يا رب تكون مبسوط معانا يا بيه .

- مبسوط ..

- وحشتني أوي .

- و أنت كمان يا حبيبتي .

ثم انظر للسماء .. ثم ابتسم و أجفف طرف عيناي من هنا و من هنا .. و اشعر بكتف رحيم زوجي يلتف حولي كمن سمع محادثتي السرية بك ، ثم يطيب خاطري بقبلة على جبيني ..

و ها نحن جميعًا مرة أخرى .. أجلس في فستانٍ من الرضا .. تغطيني سَكِينَةُ السماء بزرقتها من أعلى و تحتضني الأرض بخَضارها الآمن من أسفل .. أجلس و إلى يميني رعاية فاتنة .. ساخنة تبث البهجة و الأمان ، ككوب اللبن الدافئ في يد فريد .. و إلى يساري طمأنينة نادرة ، حكيمة كنهر نيفا بروسيا ، تأتي للشخص مرة في العمر ولا تصادفها مرتين ، كزهرة الكادابول بين أصابع رحيم ..

* * *

تؤرقنا الحياة دومًا ، لطالما عشنا أيامًا قاسية هنا ، و لكن على سوء الحياة و قسوتها كانت دومًا تكون لطيفة في بعض الوقت بنفس القدر من القسوة تقريبًا .

و على نحو منطقي نحن حتى لا نشعر بتناوب تلك المشاعر معظم الوقت ، قد يكون السبب أننا تكيفنا نوعًا ما ؟ ربما ..

و أنا قد مارست التكيُّف بالطبع على مدى حياتي بعد ذلك ، حصلت على لقب أفضل مغنية شابة صاعدة بعد عدة محاولات فاشلة كما رغب أخي .. أُمارس الباليه الأن من وقتٍ لأخر و لدي غرفة في بيتي الجديد تمتلئ باللوحات الجميلة و على رأسهم اللوحة التي كنت أرسم فيها فريد و لم تكتمل في ذلك اليوم الذي كتبت له فيه الرسالة قبل الحادث .. و الأن أنا طبيبة عيون أعمل في مشفى خاص بأجرٍ جيد .. لدي طفلة جميلة للغاية من زوجي العزيز توضع فوق الجروح لتطيب و اسميتها (سلفيا) كما اتفقنا أنا و والدها .

حتى أنني مررت مع رحيم إلى جانب الحب بمواقف مليئة بالخجل والارتباك و التوتر و البكاء كأي حبيبان .. انفصلنا عدة مرات و كانت تبدو نهاية هذه العلاقة مبررة و مريحة في كثير من الوقت قبل الزواج ، لكن مع مرور الزمن ادركت أن قلبي احتاج لهذه المشاعر كلها تقريبًا و احتاج هذا الحب بكل ما فيه من مرارة و حلاوة .. كان كسر قلبي و جبره عدة مرات أفضل لي من تركه ليتجمد و يتحجر بدون رحيم .

لذا عندما اتحدث عن التكيف فينا فهو مختلف بعض الشيء ، و في رأيي أن الانسان لديه غريزة البقاء أكثر من باقي المخلوقات في تكوينه وتفكيره على حدٍ سواء ، مما يجعلنا نميل للتغير كل ساعة عن الساعة

التي سبقتها إن جاز التعبير ، و هذا منطقي و مبرر للغاية بالنسبة لي .. فإن كنت أنا هو ذات الشخص في العام الماضي ، فهذا يعني ضياع سنة كاملة من عمري حرفيًا .. لذلك منذ عودتي من روسيا كنت شخصًا آخر تمامًا ، و كان باسم على حق حينما عانقني ذلك اليوم و قال أنه يودع نور تلك للأبد .